نجيب محفوظ



جمال الغيطاني

أخبار اليوم

نجيب محفوظ يتذكر

طبعة ثالثة

جمال الغيطانى



غلاف : مصطفى حسين

هذا الكتاب أغنانى عن

التفكير فى كتابة سيرة ذاتية.

لما يحويه من حقائق جوهرية

وأساسية فى مسيرة حياتى

فضلا عما به من مواقف تعتبر

كلها من سيرتى الذاتية.

٥ نوفمبر ١٩٨٤ نجيب محفوظ

.... نجيب محفوظ . .

وتتداعى عندى معان شتى ، وتولد أزمنة ، تتجسد معان ، ويقوى حضور ، الاخلاص الصوفى للابداع الذى يعمل إلى حد الفناء فى الفن ، الحيوية ، تدفق العطاء ، الروح الشعبية الأصيلة ، نواصى الحوارى وظلال الأبنية العتيقة ، وتلك المشربيات التى تخفى حيوات متكاملة ، وأسراراً ، وطرائق إلى العشق ، والفراق ، الميلاد ، والموت ، والانتظار والحزن الشرقى الأسيان الصميم المر كطعم التوتياء . ونسة المقاهى ، وحميمية الأصحاب . .

نجيب محفوظ . .

لم أرتبط بكاتب مثلما ارتبطت به ، انه ركن من بنيانى الروحى ، وأساس من أساسات عالمى ، بعض

مما عنده تلاقى بما هو عندى ، فتعلمت منه الدأب ، والاخلاص اللامحدود للفن ، وان هذه الحياة كلها ما هى إلا اطار وجوهر فى نفس الوقت للابداع ، عندى له ود ، ولى به وثيق صلة . .

مازلت أذكر هذا اليوم البعيد ، ربما كان فى عام ١٩٦٠ ، أو عام ١٩٦١ ، لا أدرى موقعه بالضبط بين الأيام ، لكنه بالتأكيد يوم جمعة ، كنت أقف فى شارع عبدالخالق ثروت ، فى مواجهة المدخل الجانبى للأوبرا التى احترقت ، كنت أنتظر أحد الأصدقاء ، عندما وقعت عيناى على نجيب محفوظ لأول مرة ، كان قادما من ناحية ميدان العتبة ، متجها إلى ندوة الأوبرا الاسبوعية ، كيف تعرفت عليه ، ربما صوره التى علقت بذهنى ، تلك الصور التى كانت تنشرها الصحف والمجلات ، لم أكن أعرفه ، غير ان راحة غمرتنى ، فهذا عظيم ممن قرأت لهم . الروائى العربى الوحيد الذى تعلقت بأعماله ، تلك الأعمال التى كانت تحمل عناوين المنطقة التى أحيا فيها ، القاهرة القديمة ، والذى وجدت قامته تطاول قامة الروائيين الكبار الذين قرأت أعمالهم فى هذا العمر البعيد ، تولستوى ، دستويفسكى ، توماس مان ، وغيرهم .

مضى عام ، وكان مقر عملى الجديد فى الدقى ، كنت أمشى من الجمالية فى الصباح الباكر إلى الحى الأنيق ، وأعبر كوبرى قصر النيل ، وفوق الكوبرى التقيت بنجيب محفوظ أذكر أن خطواته كانت أسرع ، وكان بنيان جسده فى ضعف جسده الحالى ، وشعره أسود تماما ، كان فى الواحد والخمسين ، وكان يعمل مستشارا ثقافيا لمؤسسة السينما ، مقر مكتبه فى مبنى التليفزيون ، يمشى يوميا من منزله إلى المبنى ، فوق الرصيف ذاته ، يعبر من نفس المكان ، وكالعادة يحمل فى يده اليمنى صحف الصباح ، تعرفت به ، وبدأت أصحبه مسافة قليلة من الطريق قبل أن أنثنى معاودا سيرى فى الاتجاه المعاكس ، فى أحد هذه الأصباح النائية ، أعطيته نسخة من مجلة (الأديب) البيروتية التى كان يصدرها الراحل الكبير البير أديب ، حيث نشرت أول قصة لى ، قصة عنوانها « زيارة » كان ذلك فى عدد

يوليو ١٦١٢ .

فى اليوم التالى قال لى أنه قرأ القصة ، وانها جيدة ، وانه أعجب بها ، وبدا على وجهه ذلك التعبير الذى خبرته جيدا فيما بعد كلما أعجبته قصة أو رواية قرأها . ثم اقترح على أن أجىء إلى ندوة (الأوبرا) ، وفيه بدأت علاقتى بالأديب الكبير ، واستمرت حتى يومنا هذا ، وخلال ربع قرن من الزمان ، لاحظت اهتمامه بكل انتاج أدبى جديد يصل إليه من أى أديب ناشىء أو مجهول ، يقرأه بعناية ، ويبدى رأيه شفاهة إذا كان الأديب يلتقى به ، أو كتابة إذا كان يقيم بعيدا عنه ، أيضا لا يهمل كتابة رد على أى رسالة تصل إليه ، برغم تعدد هذه الرسائل ، سواء كانت قادمة من باحث فى أدبه بإحدى الجامعات الأوروبية أو أديب مجهول يعيش فى قرية نائية ، وهذا ما لم أستطع أن أتعلمه منه للأسف ، فلكم أضيق بكتابة الرسائل ، فلا أخط خطابا إلا إذا كان الباعث دفقة شعورية ، أو رغبة حادة فى التواصل ، تعلمت منه أن الأدب مجاهدة ، وانه يقتضى الدأب الشديد ، والمثابرة ، وانه ليس وسيلة للنجومية ، أو للظهور فى أبواب أخبار المجتمع بالصحف ، أو برامج التليفزيون ، لقد كتب أشهر أعماله وهو فى الظل ، تعلمت منه أيضا هذا التنظيم الحديدى للوقت ، أدرك أن العمر ضيق ، أن العمر قصير والعلم كثير ، وما أريد البوح به أدبا أكثر ، وأن السنوات تمضى مسرعة ، والأدب ليس نزوة ، وانه فى حاجة إلى جهد كبير ، هائل ، إلى المعايشة العميقة لحياة الناس ، إلى التحصيل المستمر .

قال لى نجيب محفوظ :

« نعم أنا منظم ، والسبب فى ذلك بسيط ، إذ عشت عمرى كموظف ، وأديب ، ولو لم أكن موظفا لما كنت اتخذت النظام بعين الاعتبار ، كنت فعلت ما أشاء وفى أى ساعة أشاء ، لكننى فى هذه الحالة ، كان على أن أستيقظ فى ساعة معينة ، وأكون فى الوظيفة فى ساعة معينة ، ويبقى لى من اليوم ساعات معينة ، فإن لم أنظم هذا اليوم فسأفقد

السيطرة عليه ، لقد عودت نفسى على ساعات معينة للكتابة ، وفى البداية كانت روحى تستجيب أحيانا ، وأحيانا لا ، لكننى مع الزمن اعتدت ذلك ، اننى أكتب عادة عند الغروب ، ولا أذكر اننى كتبت أكثر من ثلاث ساعات . وفى المتوسط لمدة ساعتين ، أشرب فى اليوم الواحد خمسة فناجين قهوة وأسهر حتى الثانية عشرة ليلا ، وأكتفى بخمس ساعات نوم .

●●●

عندما يكتب نجيب محفوظ يدير ظهره للعالم ، لا يعبأ بشىء ، ربما يبدو فى حياته الخاصة واليومية محافظا ، متزنا ، لكنه عندما يبدأ ابداعه ينطلق بلا تردد بلا خوف ، بلا أدنى هاجس ، أو حذر ، هكذا بدا فى قصصه القصيرة خلال الستينات التى كانت تبدو كأحد مظاهر المقاومة لمصادرة الحريات ، كذا فى « ثرثرة فوق النيل » ، و « ميرامار » و « اللص والكلاب » ، فى هذه الأعمال حذر من السلبيات الكامنة فى المجتمع والتى أدت فيما بعد إلى هزيمة يونيو .

● قال نجيب محفوظ :

« الثورة عند الأديب تبدأ فى قلبه أولا ، وفى تفاعله مع الناس ثانيا ، تبدأ فى احساسه التنبؤ الطبيعى الذى لا أعتقد أن فنانا يستحق هذا الاسم خال منه ، لأن الفنان الأصيل كالحيوان ، كالعصافير والفيلة والنسور التى عندما تحس بخطر محدق تصدر بالغريزة أصواتا خاصة معلنة للملأ أن خطرا ما آت ، والفنان إذا لم يكن عنده هذا القدر من الاحساس العام الذى يجعله ويجعل أدبه فى مستوى النبوءة متضمنا دعوة إلى هذا الاتجاه أو ذاك ، تكون أجهزته كلها معطلة أو مختلة ، ان الفنان فى الواقع لا يتنبأ ، وانما يحس الرؤيا ، رؤيا الواقع .

وقال نجيب محفوظ :

« أحيانا يجد الفنان صعوبة فى التعبير عن نفسه ، خاصة لموقف الدولة منه ، وهذا وضع عام فى العالم العربى ، اننا لا نستطيع أن نفصل عمل الأديب عن الدولة اطلاقا ، وصوت الأديب صوت لا بد أن يهز الدولة بالرضى أو السخط ، وبالنسبة إلى موقفها من حرية الرأى تكون معاناته ، وإذا تجاهلت الدولة صوت الأديب ، فإن الدولة تكون هى الخاسرة ، لأن صوت الأديب صوت كاشف عن الحقيقة ، وإذا كانت الدولة تريد أن تعرف واقعها وتعرف مستقبلها فالأديب يعرف ويعطى مالا تستطيع أن تعرفه أو تعطيه جميع أجهزة المخابرات ، بينما إذا كتمت الدولة هذا الصوت فلن يعود عليها إلا بالخسارة ، وهى هنا كالذى يضع عصابة على عينيه برضاه كى لا يرى أنه حر ، لكنه هو الخسران أولا وأخيرا ، حرية الرأى شىء ضرورى جدا للأديب ، وللأديب وللصديق وللعدو ، للعاقل ، وللحكيم ، ولا يخشى من هذه الحرية إلا واحد فقط هو غير الحكيم . .

وأسأل نجيب محفوظ :

« أحيانا أجد تناقضا بين بعض ما تقوله فى أحاديثك وبين ما أقرأه فى انتاجك الفنى » . .

أجابنى باختصار :

« صدق إذن العمل الفنى » .

● ● ●

المكان ....

لم أر انسانا ارتبط بمكان نشأته الأولى مثل نجيب محفوظ ، عاش فى الجمالية اثنى عشر عاما ، هى الأعوام الأولى من عمره ، ثم انتقل إلى العباسية ، لكنه ظل مشدودا إلى الحوارى والأزقة والأقبية .. إلى الحسين ، إلى الجمالية ، إلى الناس الذين عرفهم وعرفوه ، ثم كان المكان محوراً لأهم وأعظم أعماله الأدبية ، ومع بداية الصيف يتوقف نجيب محفوظ عن الكتابة طوال العطلة وحتى بداية الخريف ، وذلك بسبب مرض عينيه بالحساسية وفى الاسبوع الأول لعطلته ، ذهب إلى الحسين ، إلى الجمالية وكنت معه ، لقد صحبته كثيرا إلى الحسين ، وهناك راقبت انفعالاته ، وتجولت معه فى الحوارى والشوارع التى عشت فيها ثلاثين عاما . .

البداية من ميدان الحسين . . فى قلب الميدان توقفنا للحظات . بدا وجه نجيب محفوظ هادئا ، مستكينا لتأثير الذكريات التى كانت تتوالى عليه ، تطلع إلى مبنى ادارة جامع الأزهر ، قال :

— هنا كانت مدرسة خليل أغا الثانوية . .

قلت له : ان معالم الميدان تغيرت عدة مرات خلال السنوات القريبة ، منذ أن أقدم أحد المحافظين على استصدار قرار بهدم الفيشاوى ومجموعة المبانى القديمة التى كانت تجاوره ، فى وسط الميدان كانت ساعة ميدان ، ثم أقيمت نافورة ، عدلت ، ثم أحيطت بحديقة ، وفى نفس هذا المكان منذ حوالى ثلاثين عاما ، كان موقف عربات سوارس التى تجرها الخيول ، وتتجه إلى الدرب الأحمر ، إلى الحسينية .

أشار نجيب محفوظ إلى عمارات الأوقاف القائمة فى الجهة الغربية من المسجد ، قال :

— كان هنا الباب الأخضر ، فهو قبو كبير يؤدى إلى حارة ضيقة وكانت

هذه الحارة مقرا للدراويش ، ومجاذيب الحسين ، على الصفين كنت تجدهم جالسين . .

وتذكرت بدورى ، المارشال على ، هذا المجذوب الذى كان يرتدى بزه عسكرية ، وعلى كتفه العديد من الرتب العسكرية ، أما صدره فقد كان محلى بالأوسمة القديمة ، تتخللها بعض أغطية البيبسى كولا ، ويمسك بعصا ، ومن حين إلى حين ينحى بها الناس ، ضحك نجيب محفوظ ، أنه يذكره جيدا . .

من ميدان الحسين نمضى إلى واحد من الأمكنة التى استوحى منها نجيب محفوظ رواية من أجمل رواياته « زقاق المدق » . .

لكى نصل إلى زقاق المدق من جهة الأزهر .. لا بد من المرور أولا بشارع الصناديقية ، القذارة تغطى الأرض ، مخلفات الدكاكين ، والبيوت .

قال نجيب محفوظ متأسفا :

— كانت هذه الشوارع والحوارى تكنس مرتين فى اليوم الواحد وترش بالماء مازلت أذكر بغل البلدية الشهير ، ومخزن العربات ، واسطبل البغال ، كان قريبا من بيت القاضى . .

ويشير نجيب محفوظ إلى بعض المبانى التى شيدت فى الثلاثينات ، تحدث عن بيوت قديمة ، كانت تحيطها الحدائق ، تصل إلى زقاق المدق ، الزقاق ضيق جدا ، لا يتجاوز طوله اثنى عشر مترا ، وعرضه خمسة أمتار ، المقهى مغلق ، فاليوم يوم أحد ، وثلاثة دكاكين إلى الجانب المقابل ، يقول :

— أذكر انه لم يكن بالزقاق إلا المقهى ، لا أذكر ذلك البيت ، فى صدر الزقاق دكان عطارة ، يجلس أمامه ثلاثة من العجائز المسنين ، سأل نجيب محفوظ :

— مازال الفرن فى الداخل ؟

قال الرجل الأكبر سنا :

— نعم . . يبدو أنت واع على الزمن البعيد . .

يرتقى نجيب محفوظ السلالم المؤدية إلى الفرن ، هذه السلالم حديثة

أقيمت على المدق الترابى الذى وصفه فى روايته ، يتأمل الفرن حيث عاش زيطة صانع العاهات ، أهمس فى أذن أحد الرجال الثلاثة المسنين :

— أنه نجيب محفوظ الكاتب الكبير .

يقول بعد لحظة :

— أهو الذى أظهر الزقاق فى السينما . .

أومىء مجيبا .. يقول :

— أهلا وسهلا . .

ثم يعود إلى صمته . .

نفارق الزقاق ، والمقهى ، حيث كان نجيب محفوظ يأتى ويجلس إلى أصحابه فى الزمن القديم ، وفى لحظة ما ولدت فكرة « زقاق المدق » وفى أيام بعينها ، فى نفس هذا المكان تكونت الرواية ، منظرا فى إثر منظر ، وحدثا إثر حدث ، حتى اكتملت ، ومنحت هذا المكان الضيق ، المنسى الشهرة والصيت . أذكر اننى صحبت مستشرقا ذات يوم أراد أن يرى زقاق المدق ، جاء إلى المكان ، وقف ينظر إليه ، ثم قال ضاحكا :

— إذا كان نجيب محفوظ قد كتب هذه الرواية الرائعة الضخمة عن هذا المكان المحدود الضيق ، فماذا كان سيفعل لو انه كتب عن شارع بأكمله مثل شارع الأزهر ؟

الأســــواق ....

إلى الحمزاوى ، سوق الحمزاوى . . حيث الدكاكين الصغيرة . . دكاكين العطارين والعطور ، حيث السوق لا يزال محتفظا بمكانه القديم ، وبهيئته الأولى ، ويشكل المتجر المصرى فى القرن التاسع عشر ، حيث لم يكن هناك حاجز بين البائع والمشترى ، لو أن هذا السوق فى أى بلد أوروبى لبذل الكثير من أجل الحفاظ عليه ، وترميمه ، وجلب السائحين إليه ، نمضى إلى

الصاغة ، يتوقف نجيب محفوظ عند مدخل حارة الصالحية ، فوق البوابة القديمة تنتصب مئذنة الصالح نجم الدين أيوب ، واحدة من أقدم مآذن القاهرة ، وأكثرها تفردا ، إذ تتوجها مبخرة ، وهى تعد بذلك أول أشكال المئذنة المصرية عندما بدأت تكتسب خصوصيتها . .

يتوقف نجيب محفوظ لحظات ، أمام باب مغلق ، يسأل :

— ألا يزال هذا المكان مقهى ؟

يجيبه أحد المارة :

— نعم . . ولكن اليوم أحد . .

يقول :

— انه أغرب مقهى ، ممر ضيق طويل ، وعلى جانبيه تصطف المقاعد بحيث أن من يجلس يلامس المواجه له ، هكذا كان الحال على أيامنا . .

نعود إلى شارع المعز لدين الله ، يشير ضاحكا إلى بيت متهدم ، قديم ، يقول ضاحكا :

— فى هذا البيت كان يسكن عدد من الفتيات الجميلات جدا ، وكان بعض الرجال من الأعيان يجيئون ويجلسون ، يرفعون عيونهم ، ويلعبون حواجبهم للبنات ويبرمون شواربهم . . هكذا كان الغزل فى العشرينات والثلاثينات . .

ونمضى عبر « سوق النحاسين » حيث تخيل نجيب محفوظ موقع دكان أحمد عبدالجواد فى الثلاثية ، لاحظت أنه يطيل النظر أحيانا إلى بعض المواضع ، ويتمهل عند أماكن أخرى ، ويرفع رأسه فى معظم الأحيان ليتأمل ويرى ، ولم أشأ أن أزعج ذكرياته بالسؤال والاستفسار . .

مررنا أمام مجموعة قلاوون الأثرية ، البيمارستان ، والحمام ، والمسجد ، والقبة ، ومسجد الناصر قلاوون ، ومسجد برقوق ، المآذن تنتصب سامقة ، مرتفعة ، خاصة مئذنتى قلاوون وبرقوق ، قلت لنجيب محفوظ :

— لقد وصفت موقع بيت أسرة أحمد عبدالجواد فى الثلاثية ، وطبقا لوصفك فإن المكان الذى وصفته ، لا يوجد فيه بيت ، انما قصر الأمير بشتاك . .

وافقنى نجيب محفوظ ، مررنا أمام حمام السلطان الشهير . قال :
— ألا يزال موجودا ؟
قلت :
— ويعمل أيضا . . معظم حمامات الجمالية لا تزال تعمل . .
وصلنا إلى « سبيل عبدالرحمن كتخدا » توقف نجيب محفوظ لحظات ، أشار إلى « حارة التمباكشية » . .
— كان هذا الجانب كله سوقا للتجار الشوام ، كانوا يجلسون أمام متاجرهم ، يرتدون عمامات صفراء عالية ، ويدخنون النرجيلة ، ويعرضون « النقل » أى قمر الدين والبندق واللوز والجوز . .
ثم أشار إلى بقايا بناء فسيح قديم ، قال :
— كان ذلك بيت المهيلمى ، أسرة كبيرة ، واشترك عدد من أفرادها فى ثورة ٢٣ يوليو . .
قلت لنجيب محفوظ :
— سنتجه الآن إلى ميدان بيت القاضى ، يمكننا أن نمر بقبو قرمز ، أو قبو حارة بيت القاضى . .
قال :
— لقد جئت إلى هنا منذ أسبوع ومررت . .
قلت :
— إذن إلى القبو الآخر . .

الكتــــاب ....

بدأنا السير فى « حارة بيت القاضى » قال نجيب محفوظ :
— كنا نسميها حارة الكبابجى . .
مررنا بالقبو الأثرى القديم ، حيث اختبأت أسرة « أحمد عبدالجواد » أثناء غارة جوية فى الحرب العالمية الثانية ، وعلى أثرها لفظ بطل الثلاثية

أنفاسه . تتعرج الحارة .. أشار نجيب محفوظ إلى بعض البيوت المرتفعة ، قال انها كما هى لم تتغير ، وفجأة أسرعت خطاه ، سبقنى عند المنحنى ، حيث يقوم سبيل أثرى قديم ، لحقت به ، بدا عليه النشاط . .

قال :

— هذا هو الكتاب الذى تعلمت فيه . . السبيل باق ، لكن الكتاب أزيل للأسف . .

كان فى الطابق العلوى . . انه رقم (٩) . .

أشار إلى الطابق العلوى المتهدم ، دخل من الباب ، عاد ليقول أن السلم باق كما هو لكنه يؤدى إلى لا شىء ، فى هذه اللحظة اقترب منا رجل عجوز ردد :

— أنتم مين ؟ . . عاوزين مين ؟

قلت له :

— نحن زوار . .

ولكنه راح يردد :

— أنتم مين . . عاوزين مين ؟

فأدركت أنه لا يسمع ، وتذكرت « الشيخ عبد الصمد » فى ثلاثية نجيب محفوظ ، فارقنا الكتاب ، واقتربت خطانا من حارة بيت القاضى ، ومن المكان الذى ولد فيه نجيب محفوظ . .

البيت القديم ....

. . اتسعت خطا نجيب محفوظ ، اتجه إلى الناحية المؤدية إلى درب قرمز . .

قال :

— أذكر أن بيتنا كان رقم (٨) . .

نظرت إلى البيت القائم عند الناحية ، قلت :

— انه يحمل رقم (٨) أيضا . .

قال محمد عبدالرحمن :

— أرقام البيوت لا تتغير . .

لكن البيت نفسه تغير ، لقد أزيل البيت الذى ولد فيه نجيب محفوظ ، كان يتكون من ثلاثة طوابق ، بيت رأسى وليس أفقيا ، وتحوى « حكايات حارتنا » وصفا دقيقا له ، ولكن البيت الموجود الآن يتكون من طابقين ، الأول مسكون ، أما الثانى فمن طوب أحمر ، لم يكتمل بعد ، البيت قبيح ، أبدى نجيب محفوظ أسفا وحزنا ، قال :

— كانت شبابيك بيتنا من خشب الخرط ، وكان البيت يطل على درب قرمز من ناحية ، وعلى ميدان بيت القاضى من ناحية أخرى ، كان الميدان مليئا بالأشجار ، كنت أمد يدى فأمسك بأوراق الشجر ، كان شجراً نسميه ، شجر دقن الباشا . .

دار حول الشجرة الوحيدة المتبقية بجوار دورة المياه التى تتوسط الميدان ، والتى بنيت منذ زمن ليس ببعيد ، وكان إلى جوارها حوض مستطيل تشرب منه الحمير والبغال ، أزيل الآن . قال :

— لا أعرف نوع هذه الشجرة ، ولكنها بالتأكيد ليست « دقن الباشا » . كان إلى جوار بيتنا فى الميدان منزل الدكتور عبدالعزيز ، كان مدخله فخما ، به عيادة ، ثم يليها حديقة كبيرة ، وفى الداخل المنزل نفسه ، أما من ناحية درب قرمز ، فكان بيت السكرى يحتل كل هذه المساحة ، لم تكن هناك هذه البيوت ، وإلى جوار بيت السكرى ، كان فيه تكية للدراويش ، كانت الحارة فى زمنى القديم يوجد بها البيت الضخم كالسراى وإلى جواره بيت يسكن فيه الفقراء . .

سكت لحظات ، ثم قال :

— كنت أتفرج على الفتوات الذين يجيئون بعد معاركهم فى الخلاء إلى قسم الجمالية ، ومن حجرة صغيرة فى السطح ، كنت أرى مظاهرات ثورة ١٩١٩ ، ومظاهرات النساء من بنات البلد فوق العربات الكارو ، وضرب الرصاص ، وكانت المشاكل تبدأ بينى وبين أمى ، كانت تشدنى بعيدا عن النافذة ، وكنت أريد الفرجة ، خاصة على ضرب الرصاص

أشار الى بوابة « بيت القاضى » وقال :

— كثيرا ما رأيت المظاهرات والجنود الانجليز يتصدون لها هنا .. ما أكثر ما رأيت ..

استدار ليلقى نظرة على الميدان ، على مقعد القاضى ماماى الأثرى القائم فى صدر الميدان ، أشار إلى عمارتين مرتفعتين . . قال :

— بنيت هاتان العمارتان ونحن هنا ، كان لهما زيطة وضجة ، لأنهما عاليتان بمقاييس زماننا ..

أثناء مرورنا تحت بوابة بيت القاضى ، قال :

— كان يقعد هنا واحد بتاع كراملة ، اسمه الشابخورلى ..

ضحك نجيب ضحكته العالية المجلجلة :

— هل تستطيع أن تدلنى على معنى لهذا الاسم .. الشابخورلى ..

وغادرنا بيت القاضى ،حيث ولد نجيب محفوظ فى المنزل رقم (٨) ..

مررنا بمدرسة خان جعفر الابتدائية ، وفندق الكلوب المصرى الذى شهد فيه نجيب محفوظ أول عروض السينما فى مصر ، أصبحنا فى شوارع المشهد الحسينى ، حيث مسجد مولانا وسيدنا الحسين ، فى مواجهته سبيل عثمان أثرى ، وفوقه مدرسة بين القصرين الابتدائية :

— درست هنا لعدة سنوات ..

تأمل نجيب محفوظ واجهة المدرسة لفترة طويلة ، ثم مضينا الى مقهى الفيشاوى القديم ، والذى هدم فى عام ١٩٦٩ ، ولم يعد منه إلا بقايا ، فى المقهى أمضى نجيب محفوظ سهرات طويلة ، وقضى ساعات أطول يدخن النرجيلة ، ويستوحى أحداث وأبطال رواياته عندما كان موظفا فى قبة الغورى ، وفى القرض الحسن التابع لوزارة الأوقاف ، وهنا دخن النرجيلة ، لكن نرجيلة زمان كانت فاخرة ، وكان التنباك أنواعا وأصنافا . يقول نجيب محفوظ بلهجة أسيانه تعكس حنينه الى الزمن القديم :

— ياسلام .. زمن ..

ولاأدرى ماذا يجول فى عقل كاتبنا الكبير ، وأى صور بعيدة يستدعيها . أعرف أن هذا المكان يوحى اليه بالكثير ، وانه ما من مكان ارتبط به فى

حياته ، مثل الجمالية ، والحسين ، وهذه المنطقة ، وعلى الرغم من سكنه فى مناطق أخرى من القاهرة ، العباسية ، وشارع النيل ، إلا أنه لم يعكس هذه المناطق بنفس القوة التى صور بها الجمالية ، وما تزال الحارة محور عالمه .

الحــــــارة ....

... فى عام ١٩٢٤ ونجيب محفوظ يبلغ من العمر اثنى عشر عاما ، انتقلت اسرته من البيت القديم بميدان بيت القاضى ، الى بيت العباسية الذى اشتراه والده بألف جنيه .

وظل نجيب محفوظ مشدودا الى الجمالية ، يتردد على مقهى زقاق المدق ، ومقهى الفيشاوى ، وأحد أصدقائه وكان تاجرا بالغورية .

وفى منتصف الخمسينات تزوج ، وانتقل الى شارع النيل بالعجوزة ، شقة صغيرة بالطابق الأرضى ، مطلة على النيل ، ولم ينقطع عن الجمالية ظل حنينه الى القاهرة القديمة قويا ، جارفا ، وأصبح هذا العالم القديم ، وتلك الحوارى العتيقة بمثابة القلب لكل أعماله ، واستطاع أن يعكس روحها بقوة ، وصدق ، وأن يكسبها الخلود . أذكر اننى كنت مسافرا الى المغرب منذ عامين ، وفى الطائرة جلست بجوار مدرس مغربى بجامعة محمد الخامس ، كان يرتدى الزى المغربى الشهير ، العباءة البيضاء ذات القلنسوة ، وكان انسانا ودودا خفف عنى بحديثه طول الرحلة التى تستغرق حوالى خمس ساعات ، وكان عائدا من زيارة للقاهرة قضى خلالها أجازته ، كان الباعث الأول على الزيارة ، التوجه الى القاهرة المعزية ، حيث يمكنه أن يرى الأماكن التى كتب عنها نجيب محفوظ ، وأن يرى المنابع الأولى للشخصيات التى قرأها فى الثلاثية ، ولكم كان سعيدا بزيارته تلك . ومنذ أسابيع دعانى المستشار الثقافى الفرنسى الى حفل عشاء مع عدد من زملائى بمناسبة ترجمة بعض أعمالنا الى الفرنسية ، وهناك التقينا بعدد من المثقفين الفرنسيين القائمين على هذه الترجمة ، والعاملين بمركز الدراسات السياسية

والاستراتيچية الفرنسى الذى أنشىء مؤخرا بالقاهرة ، أخبرنى أحدهم ، وهو روائى ، يتقن اللغة العربية ، أنه استأجر غرفة فى فندق الحسين المطل على الميدان والمجاور لحى خان الخليلى الشهير ، وقضى شهرين فى المنطقة ، درسها حجرا حجرا ، وعاشها من خلال شخصيات عديدة تعرف بها هناك ، وكانت أعمال نجيب محفوظ فى خلفية ذهنه باستمرار ..

حتى الأعماق ....

غاصت الأعوام الأثنا عشر التى قضاها نجيب محفوظ فى الجمالية الى أعماقه ، وانعكست بقوة فى عالمه الروائى ، ولم تظهر ضاحية العباسية التى عاش فيها شبابه كله وصدر رجولته إلا كمكان ثانوى ، يكون الذهاب اليه انطلاقا من الجمالية ، كما نجد فى الثلاثية عندما كان يسعى كمال أحد أبطال الثلاثية لزيارة قصر آل شداد ، أما منطقة العجوزة ، أو شارع النيل ، فلم تنعكسا فى أعماله قط ، لم تشده الشوارع الحديثة ، والمبانى الشاهقة ، وأعتقد أنه مجرد مكان للاقامة ، للنوم ، وللعمل ، ونفس الأمر بالنسبة لى ، فقد عشت فى حوارى الجمالية لمدة ثلاثين عاما متصلة ، وعندما تزوجت ، اضطرتنى ظروف أزمة الاسكان الى السكن فى حلوان ، وابتعدت عن الجمالية جسدا ، لكننى لم أبتعد عنها روحا وقلبا ، واعترف اننى مازلت عاجزا عن التواصل مع ضاحية حلوان ، فلا أنا قادر على إقامة علاقات بها ، ولا أنا قادر على الشعور بها ، ولا أكلف نفسى عناء استكشافها ، ويخاطبنى احساس دائم أن اقامتى فيها مؤقتة ، واننى يوما ما سأعود مع أسرتى الى الجمالية ..

والحارة التى عاشها نجيب محفوظ فى عشرينيات هذا القرن ، تختلف عن الحارة التى عشتها حتى منتصف السبعينات ، كانت القاهرة القديمة فى زمن نجيب محفوظ مركزا لسكنى الطبقة المتوسطة والتجار الكبار ، وكبار الموظفين ، وكانت حوارى الجمالية ذات تركيبة اجتماعية غريبة ، فى الحارة الواحدة نجد قصرا به حديقة غناء ، والى جواره نجد بيتا متوسطا تسكنه

اسرة تاجر ، والى جواره نجد ربعا ضخما ، تسكنه عشرات الأسر الفقيرة كانت الحارة تضم مختلف المستويات الاجتماعية ، ولا تزال هناك بقايا هذا النظام فى حارة درب الطبلاوى بقصر الشوق التى كنت أسكنها ، يوجد قصر المسافر خانه الشهير ، أو قصر الضيافة الخاص بأسرة محمد على باشا والذى ولد فى احدى حجراته الخديو اسماعيل ، مازال هذا القصر باقيا حتى الآن ، ولكن كمتحف ، ومقر لبعض الفنانين التشكيليين ، ومن الدور الكبيرة الباقية حتى الآن فى الحارة ، منزل آل شمس الدين ، وفيهم شيخ الطريقة الأحمدية المرزوقية ، ويقع الى جوار سيدى مرزوق ، وفى نفس الحارة توجد عمارات حديثة يسكنها بعض أبناء الطبقة المتوسطة وتوجد بيوت قديمة تسكنها عائلات فقيرة ، فى حارة الدرب الأصفر ، كان يوجد حتى مطلع الخمسينات عدد من الدور الكبيرة التى تحيطها الحدائق ، أقامها بيت السحيمى القائم حتى الآن باعتباره متحفا ، وبيت مصطفى جعفر ، الذى تتخذه هيئة الآثار كمقر لمكاتبها ، أما بقية البيوت فقد اندثرت ، منذ الثلاثينات بدأت البيوت ذات الحدائق فى الاندثار ، وبدأت هجرة العائلات الكبيرة من الجمالية الى الأحياء المستحدثة فى القاهرة ، تحولت بعض الحوارى الآن الى وعاء للحضيض الاجتماعى ، كما أن يد الاهمال بسطت أصابعها فوق المكان كله ، وأذكر أن حارتنا « درب الطبلاوى » كانت تكنس وترش فى اليوم الواحد مرتين ، كان الكناس يأتى فى الصباح ، وعند الظهيرة ، يجمع البقايا الى جوار الجدران ، ثم تأتى عربة الزبالة فتزيلها ، ثم تجىء عربة الرش ، أما الآن فلكم أشعر بالحزن والأسى عندما أرى مياه المجارى طافحة ، بحيث تجعل دخول المساجد القديمة والبيوت الأثرية ، والتجول أمرا صعبا ، ومعظم حوارى الجمالية كانت مبلطة بالحجارة ، تماما كشوارع باريس القديمة ، والآن قصر النظر الحضارى أصاب موظفى محافظة القاهرة ، فقد استبدلوا بهذه الحجارة الأسفلت ، وسرعان ما دبت الحفر ، والمطبات ، هذا ما حدث فى حارة درب الطبلاوى على سبيل المثال ، ناهيك عن تغيير بعض معالم المنطقة ، وكان من أبرزها هدم مقهى الفيشاوى القديم ، هذا القرار الغبى الذى أجهز على واحد من أرق وأعرق مقاهى

القاهرة القديمة ، ولم يتبق منه إلا شظايا مكان .

ونعود الى حوار نجيب محفوظ ..

الواقع والرمز ....

فى أعمال نجيب محفوظ الأدبية نجد الحارة على مستويين .. الأول واقعى والثانى رمزى ، نجد المستوى الأول فى أعمال نجيب محفوظ الواقعية ، فى زقاق المدق وخان الخليلى ثم الثلاثية ، بين القصرين ، قصر الشوق ، والسكرية ، فى هذه الأعمال نلتقى بحارة محدودة الملامح والسمات ، خاصة اذا طابقناها بالواقع ، فى هذه الروايات تتحرك الشخصيات فى حارات محدودة ، التزم نجيب محفوظ بتضاريس الواقع فى منطقة الجمالية ، والمتتبع لحركة الشخصيات فى الروايات اذا طابقها بالمكان الواقعى سيجد أنه التزام مدهش بطوبغرافية المكان ، ومعالمه ، حتى يمكن بحق اعتبار الثلاثية وخان الخليلى وزقاق المدق ، مراجع دقيقة لمعالم المكان خلال الزمن الذى دارت فيه الأحداث ، بعكس هذه المعالم المندثرة مثل مقهى سى عبده الذى كان يقع تحت الأرض ، وكانت تتوسطه نافورة مياة تحيط بها المقاصير ، وكان يجتمع فيه بطل الثلاثية كمال عبد الجواد بصديقه فؤاد الحمزاوى ، لقد تتبعت على الواقع حركة الشخصيات التى رسمها نجيب محفوظ فوجدت تطابقا دقيقا بين الوصف وبين معالم المكان ، واذا ذهبنا اليوم الى زقاق المدق فسنجد المقهى ودكان الحلاق ، ودكانا آخر مغلقا . ويقول أبناء الزقاق أنه كان هناك رجل بدين يبيع البسبوسة بالزقاق وهو الذى ظهر فى الرواية باسم عم كامل . أما المدق نفسه فمازال موجودا ، كذلك الفرن .

فى هذه المرحلة الواقعية كانت الحارة انعكاسا أمينا للمكان كما عايشه نجيب محفوظ ..

أما المستوى الثانى الذى نجده فى أعمال كاتبنا الكبير للحارة ، فيمكن اعتباره المستوى الرمزى ، ونجده فى أولاد حارتنا والحرافيش وحكايات

حارتنا والعديد من قصصه القصيرة . هنا تصبح الحارة مزيجا من الواقع والحلم ، واقع مقطر ، كما نجد فى « حكايات حارتنا » وهذه الحارة الخاصة لها وجود مستقل ، ولها مفرداتها ، ورموزها ، التى تتكرر من حين الى آخر ، نجد البيوت ، وشجر اللبلاب ، والمقهى ، والقبو والخلاء ، والسكينة ، حيث رجال الله القابعون ، المتفرغون لذكره دائما لا يسفرون ، ولا يظهرون ، ولكن تتردد أصداء أدعيتهم الغامضة ، حينا بالتركية ، وحينا بالفارسية ، أما الخلاء فهو نهاية هذا كله ، منطلق وفسيح حدود الدنيا ، يوحى بالعدم ، وعند الأفق تبدو القباب والمآذن ، وفى الزوايا يقوم شجر التوت .

فى حوارى نجيب محفوظ تتوالى الأيام معبقة بأسرارها وتظهر شخصيات ، وترحل شخصيات ، ويختفى البعض الى الأبد ، وتنشب خناقات ، وتشج روؤس ، وينصب فتوات ، ويهزم فتوات ، ويحل الجيل ، مكان الجيل ، وتنقضى الأعمار وتبقى أسوار التكية عالية تتردد من خلفها أصوات الدراويش ، تبدو حوارى نجيب محفوظ هنا شفافة تلخص كل ما فى الحياة وتعكس ملامح الانسان فى أطواره المختلفة ، أنها باختصار ، صورة مقطرة لعالمنا ودنيانا ، صاغها أديبنا الكبير فى شاعرية وحساسية مرهفة ، وحب هائل لقلب قاهرتنا القديمة ، يدعو الى الاعجاب .

العباسية والمقهى ....

اتسعت العباسية ، وتغيرت عما كانت عليه فى عشرينيات وثلاثينيات هذا القرن ، كانت الصحراء تبدأ عند نهاية شارع السرايات وكانت تنقسم الى قسمين ، العباسية الشرقية حيث القصور التى تحيطها الحدائق الوارفة ، وبرغم تغير معالم المنطقة ، إلا أن الصورة التى رسمها قلم نجيب محفوظ للمنطقة فى الجزء الثانى من الثلاثية ، لا تزال بالنسبة لى مسيطرة على العباسية ، لا امضى اليها إلا وتهب على نسمات هذا الزمن البعيد ، عندما كان كمال عبد الجواد يمضى من بيته بين القصرين الى سراى آل شداد ،

حيث يخفق قلبه ، وتثور عواطفه ، لأنه ماض الى بيت المحبوبة عايده شداد ، فى شارع السرايات عاشت ، وهلت عليه فى الحديقة ، واضطربت عواطفه ، وتحت شجرة فى هذا الشارع وقف كمال يرقب النافذة المضيئة فى سراى آل شداد ليلة زفاف عايده ، كان يرتجف بردا وألما ، وكان هذا الحب تجربة امتزج فيها الألم بالعشق ، لقد أثرت فى هذه التجربة تأثيرا كبيرا ، وحاورت نجيب محفوظ مرات عديدة ، اسأله عن ملامح عايدة فى الواقع ، وشخصيتها ، كانت تكبره سنا ، أى أنها لو كانت تعيش الآن فهى فى حدود الثمانين ، والغريب أن احدى قريباتها تسكن الآن فى شقة تقع بنفس البيت الذى يسكنه نجيب محفوظ فى الاسكندرية ، يقول نجيب محفوظ فى الثلاثية :

— عايدة يا قضائى وقدرى ..

ولو لم أعرف عايدة لكنت انسانا غير الانسان ..

ولكان الكون غير الكون ....

وعندما أسأله عن عايدة التى أحبها فى الواقع ، فإن وجهه يرق ، وتبدو ملامحه غارقة فى الذكريات ، الذكريات التى أصبحت بعيدة ونائية . فقد مضى ما يقرب من خمسين عاما على هذا الحب الذى عصف بنجيب محفوظ فى بداية شبابه ، كان هذا الحب هو التجربة العظمى فى حياته حتى الآن ، لقد أثرت فى هذه العلاقة تأثيرا عميقا ، الى الحد الذى دفعنى فى مطلع عشرينيات عمرى ، أن أحب نموذجا مماثلا ، وأن أعيش تجربة مشابهة ، حيث الحب من أجل الحب ، لا أمل فى وصال ، أو حياة مشتركة ..

فى العباسية عاش نجيب محفوظ شبابه ، حيث انتقلت الأسرة من الجمالية فى سنة ١٩٢٤ ، ولم ينتقل منها إلا بعد زواجه ، وكان ذلك فى الخمسينيات ، واستمر يتردد على العباسية يوما واحداً فى الأسبوع ، يوم الخميس ، هناك يتناول الغداء ، ويقضى يومه كله مع والدته ، وفى الساعة السادسة مساء ، يتجه الى مقهى عرابى القديم حيث أصدقاء الطفولة ، وفى هذا المقهى كنت أرى نجيب محفوظ منذ نهاية الستينيات ..

المقهى القديم ....

كان مقهى عرابى من أشهر مقاهى القاهرة فى النصف الأول من هذا القرن ، كان صاحبه من أشهر الفتوات فى القاهرة ، ويصفه نجيب محفوظ بأنه كان مهيب الطلعة ، وكأنه خلق ليكون زعيما ، وبلغ من سطوته أن مأمور قسم الظاهر لجأ اليه يوما يطلب حمايته ، ولكن عرابى أقصى عن عرش الفتونة بعد أن ضرب كونستابل انجليزى وجرده من ثيابه تماما ، وذهب الكونستابل الانجليزى الى قادته عاريا كما ولدته أمه ، عندئذ قبضوا على عرابى ، وخرج الرجل من السجن وقد اعتزل الفتونه تماما ، وأصبحت حياته كلها مقصورة على المقهى ، لم أعرف عرابى إلا من خلال نجيب محفوظ ، وعندما بدأت اتردد على المقهى لمقابلة نجيب محفوظ ، كان عرابى قد مات منذ عدة سنوات ، وكان بالمقهى آثار من العز القديم ، وقد اختصرت مساحته الآن بحيث اصبح مستطيلا ضيقا يطل على شارع الجيش ، فى هذا المقهى عرفت أصدقاء نجيب محفوظ القدامى ، ورأيت معهم شخصا مختلفا تماما عن الذى أعرفه فى الندوة الأسبوعية التى كانت تعقد فى مقهى « ريش » مساء كل جمعة .

فى « ريش » كان نجيب يبدو مستمعا أكثر منه متكلما ، يشارك فى الحديث بقدر ، ويبدو مهتما بالتعرف على الشبان الجدد ، يتحاور أحيانا ، ولكنه يستمع فى معظم الوقت ، وقد انتهت ندوة « ريش » نهاية غريبة ، عندما قام صاحب المقهى بتجديده ، واختار يوما للاجازة الأسبوعية هو يوم الجمعة ، وهو اليوم الذى كانت تعقد فيه ندوة نجيب محفوظ ، ويبدو أن الرجل آثر الراحة ، والبعد عن وجع الدماغ ، فكثير من المناقشات التى كانت تدور فى المقهى تتطرق الى موضوعات سياسية ، انتقلت ندوة محفوظ الى أحد الكازينوهات المطلة على النيل .

غير أن لقاء الخميس فى مقهى عرابى كان يتميز بالحيوية ، تعلو فيه ضحكاتَ أديبنا الكبير ، ويتبادل مع أصدقاء الطفولة الدعابات الساخرة والتعليقات اللاذعة . بسرعة أصبحت جزءا من هذه الجلسة الحميمة ، وكان نجيب محفوظ ينصرف فى الثامنة والنصف مساء ، ويصر الأصدقاء القدامى على استبقائى ، والسهر معهم فى المقهى ، أو فى منزل أحدهم بالعباسية ولم يكن عسيرا على أن أتعرف على العديد من شخصيات الأديب الكبير التى قرأتها فى رواياته ..

مولد الكرنك : هنا ....

رأيت مولد رواية الكرنك فى مقهى عرابى بالعباسية .. ذات يوم ، رأينا شخصا أبيض البشرة ، أبيض الشعر ، متوسط القامة ، عيناه غريبتان ، كأنهما مقلوبتان الى الخارج ، وأصابع يده نحيلة ، مدببة المقدمة ، كأنها مخالب الطيور ، عندما دخل المقهى ساد صمت غريب .. وأسرع الجرسون باحضار نرجيلة وضعها بجواره ، وفرد أمامه الشطرنج ، وبدأ أحد الجالسين يلاعبه .

وكان من الطبيعى أن يلفت الغريب نظرنا ، مال على نجيب محفوظ وسألنى :

— من هذا ؟

لم أكن أعرفه ، غير أنى أشرت الى الجرسون ، همست ..

— من هذا .. ؟

— انه حمزة البسيونى مدير السجن الحربى سابقا ..

واتسعت عينا نجيب محفوظ ، وراح يتأمل الرجل خفية ، وما زلت أذكر هيئة حمزة البسيونى ، وطريقة امساكه للنرجيلة ، وانحناءه على رقعة الشطرنج ، وهذا الجو الثقيل الذى أحدثه وجوده فى المقهى ، كان خارجا من السجن لتوه ، بعد أن قضى مدة عقوبته عقب اعتقاله بعد ١٩٦٧ ، وفى الأسبوع التالى لم يظهر ، وحكى أصدقاء نجيب محفوظ قصصا عديدة

سمعوها عنه ، وعن السجن الحربى ، وبعد أيام قرأت فى الصحف خبر مقتل حمزة البسيونى خلال حادث سيارة عن طريق مصر ـ اسكندريه الزراعى ..

عصر هذا الخميس الذى رأى فيه نجيب محفوظ جلاد السجن الحربى ، ولدت رواية الكرنك التى ظهرت بعد ذلك بسنوات .

الذكـــريات ....

منذ حوالى سبع سنوات انقطع نجيب محفوظ عن مقهى عرابى ، واندثر لقاء الخميس الأسبوعى ، السبب هو صعوبة المواصلات ، فنجيب محفوظ لا يمتلك سيارة خاصة به ، وهو يستخدم التاكسى ، وأصبح من الصعب حصوله على تاكسى ينقله من شارع النيل الى العباسية ، كما ان والدته توفيت فى مطلع السبعينات ، وأصدقاء العباسية انفسهم لا يترددون على المقهى ، منهم من رحل عن عالمنا ، ومنهم من أقعده المرض . يقول كاتبنا الكبير فى يأس :

ــ تصور أننى لا أستطيع القيام بواجبات العزاء بسبب المواصلات .. كثيرا مااضطر الى ارسال برقية ..

كان نجيب محفوظ ـ ولا يزال ـ وفيا لمعارف العمر . أصدقاؤه الأعزاء حتى الآن هم الذين عرفهم وعرفوه فى مطلع صباه ، كان اعز أصحابه ، مختار نويره وفؤاد نويره شقيقى الفنان عبد الحليم نويره ، وعبد الحى الألفى ، والدكتور أدهم رجب ، وكنت أراهم فى مقهى عرابى وعندما أذهب الى مقهى ريش فى الصباح الباكر أجد كاتبنا الكبير يقرأ صفحة الوفيات بدقة ، ويخط علامات على أسماء بعض المتوفين ، ثم يكتب برقيات العزاء .

فى نجيب محفوظ تتجسد القيم المصرية الأصيلة ، من الوفاء ، والمجاملة ، والحرص على العشرة القديمة ، ولا شك أن انقطاعه عن لقاء الخميس الأسبوعى بأصدقاء العمر يؤلمه ، ولكن العمل ، والزمن قوة لا تقهر ، ذلك الزمن الذى أعدم البطل الحقيقى ، الكامن ، وراء أعظم أعماله الأدبية وأخلدها !!

الحرافيش ....

.. قبل أن يسافر نجيب محفوظ الى الاسكندرية فى الخميس السابق على سفره اتصل بصديقه الفنان بهجت عثمان ، فى مثل هذا اليوم من كل أسبوع ، وفى تمام الساعة الثامنة يتجهان معا الى سهرة « الحرافيش » التى لم تنقطع جلساتها منذ أوائل الأربعينات . وأذكر أن نجيب محفوظ كان يغادر مقهى عرابى بالعباسية بعد جلسة الخميس مع أصدقائه القدامى ، يتجه الى كبابجى قريب ، يشترى منه كيلو كباب واحد ، هو ما يحمله معه الى أصدقائه الحرافيش فى الهرم عندما كانت جلسات الجماعة تعقد فى بيت الأديب الراحل محمد عفيفى ، كيلو كباب شهير لم يتغير لمدة ثلاثين عاما ، ومن قبل كان يحضر معه كيلو بسبوسة ، ولكنه منذ ان أصيب بالسكر فى بداية الستينيات انقطع عن شراء كيلو البسبوسة ، واحتج الحرافيش قائلين :

— وما ذنبنا نحن ؟

ولكن نجيب محفوظ هجر عادة البسبوسة تماما ، ومع صعوبة الذهاب الى سهرة أصدقاء الطفولة فى العباسية . انقطعت عادة الكباب أيضا ، فى نفس الوقت كان الزمن يداهم شلة « الحرافيش » اما ان يسافر أحدهم ، أو يرحل رحيلا أبديا ، حتى كان رحيل محمد عفيفى ، وهنا فقدت الحرافيش المكان القديم حيث كانت تعقد ، انتقلت الجلسة الى بيت الفنان أحمد مظهر عضو الحرافيش القديم ، ولكن مظهر يسافر أحيانا ، فى مساء هذا الخميس بدأ نجيب محفوظ وبهجت حائرين ، الى أين ؟ وكيف يمضيان السهرة معا ، وكانا فى هذه الليلة هما الحرفوشين الوحيدين ، والباقى اما فى سفر ، أو فى عمل ، فكر نجيب محفوظ قليلا ، ثم قال لبهجت :

— ما رأيك فى الذهاب الى حلوان ، ومفاجأة جمال الغيطانى فى البيت ..

يمكننا أن نصحبه ونجلس فى حلوان .. فمنذ سنوات لم أذهب اليها ..

تحمس بهجت عثمان صديقى ، وأدار محرك سيارته ، إلى طريق الكورنيش الطويل ، والهواء العليل ، ولكن نجيب محفوظ قال بعد لحظات :

— ولكن ربما ضايقنا جمال بهذه المفاجأة ، ربما كان غير متأهب لاستقبالنا ..

وقال بهجت :

— هنا تكمن حلاوة الموقف ..

بسط نجيب محفوظ شفتيه :

— لا .. أخشى أن نزعجه ، تعال نذهب الى المقطم ..

واستجاب بهجت عثمان ، لقد تغلب تحفظ كاتبنا الكبير على الموقف ، واتجهت السيارة الى المقطم ، فى الطريق قال محفوظ :

— منذ سنوات لم أذهب الى حلوان ، أذكر اننى زرت المرحوم سيد قطب بعد خروجه من السجن سنة ١٩٦٤ ، سيد قطب كان ناقدا ! لامعا ، وهو أول من كتب عنى ، وعندما ذهبت اليه فى حلوان ، وجدته يجلس فى البيت ومعه عدد من أصحاب الذقون ، كانوا يجلسون صامتين ويحملقون فى الأمام فقط ، والرهبة فوق المكان ولم يكن سيد قطب يشبه صديقى القديم الذى عرفته فيه ، وأردت أن أكسر حدة هذا الصمت الثقيل ، فقلت دعابة عابرة ، وأفترضت ان أساريرهم ستنفرج ، سيضحكون ، لكنهم نظروا الى شذرا ، ولم يبتسم أحد ، حتى سيد نفسه ، عندئذ غادرت البيت صامتا ، وشعرت بمدى التحول الذى طرأ على سيد قطب « رحمه الله » ..

واصلت السيارة طريقها الى ذروة المقطم ، فكر كل منهما فى المرحوم محمد عفيفى ، الذى كانت تلتئم الجماعة فى بيته ، وفقا عند حافة الجبل ، غرق نجيب محفوظ فى التأمل وكانت السيارات حولهما واقفة فى الظلام ، وبداخلها العشاق ..

يقول نجيب محفوظ :

— وبين الحين والحين يمر بعض الشبان المعاكسين ، والذين يستهدفون ازعاج العشاق فى خلواتهم ، كانوا يقتربون من سيارتنا ويصيحون « بطلوا

بقى » .. ويضيئون الأنوار ، وعندئذ يفاجأون أنهم أمام رجلين ، فتصيبهم دهشة ..

فى هذه الليلة شعر نجيب محفوظ بالحزن ، وشعر بمرور الزمن ، ولا بد أنه فكر فى أصدقاء العمر الراحلين ..

ونحن نجلس فى مواجهة بحر اسكندرية ، فى حديقة المنتزه ، سألته :

— لكن ما هى حكاية الحرافيش ؟

عمــر طــويل

عام ١٩٤٢ ، تكونت مجموعة من الأصدقاء الذين حصلوا على الجوائز الأدبية لمجمع اللغة العربية ، كانت تضم الروائى القدير عادل كامل ، صديق عمر نجيب محفوظ ، والذى هجر الأدب بعد أن قدم أعمالا أدبية ناجحة ، مثل « مليم الأكبر » ورواية « ملك من شعاع » والمرحوم على أحمد باكثير ، ويوسف جوهر ، وحسين عفيفى ، ونجيب محفوظ ، وبحكم أنهم حصلوا على جائزة واحدة ، وكانوا قد اجتمعوا لاستلامها ، وارتبطوا بعلاقة صداقة وتعارف ، عرف نجيب محفوظ عادل كامل لأول مرة، ويوسف جوهر ثم مرت الأيام ، واستمرت علاقة نجيب محفوظ بزميله الروائى عادل كامل ، أما الآخرون فقد ذهب كل منهم الى حاله ، واقترح عليه نجيب محفوظ ان يلتقيا فى مقهى عرابى بالعباسية صباح كل جمعة ، ورد عادل كامل قائلا أنه يعرف جماعة منهم بعض معارف نجيب محفوظ ، مثل أحمد زكى مخلوف وأمين الذهبى ، واقترح عادل كامل أن يسهر نجيب محفوظ معهم كل يوم خميس ، وبدأ بالفعل يتردد على هذه الجماعة للسهر ولكن لم يكن مواظبا على كل خميس .

فى سنة ١٩٤٣ تكونت ندوة مقهى الأوبرا ، وكان يحضرها عادل كامل ، وقد استمرت ندوة الأوبرا حتى عام ١٩٦٢ ، وكنت اتردد عليها صباح كل جمعة ، حيث نلتقى بالأديب الكبير ، واكرر أنها كانت ندوة حية . وربما كانت آخر الندوات الأدبية الكبيرة فى القاهرة ، هى وندوة المرحوم الشيخ أمين

الخولى التى كنت أتردد عليها أيضا مساء كل أحد ، وكانت تعرف باسم ندوة الأمناء ، فى هاتين الندوتين عرفت العديد من الأدباء ، وناقشنا العديد من القضايا ، وارتبطت بعديد من العلاقات التى استمر بعضها حتى الآن ، كان المناخ الأدبى حيا ، يتسم بالحيوية ، وقد اندثرت الندوات الأدبية من حياتنا ، ولكم كانت مفيدة خاصة لمن يخطو أولى خطواته فى عالم الأدب ، كما أنها كانت تمثل التواصل بين الأجيال .

أذكر ذات يوم جمعة ، اننى ذهبت مبكراً ، وجلست فى مواجهة نجيب محفوظ ، كنت أجلس دائما صامتا ، وكنت صغير السن ، الى درجة اننى لو تكلمت كنت أرفع أصبعى مستأذنا وكأنى فى الفصل أمام استاذ أرهبه ، وفجأة سألنى نجيب محفوظ :

— لماذا تكتب يا جمال :

والحقيقة اننى لم أدر كيف أجيبه ، ولو سألنى أى انسان نفس السؤال الآن فلن أجد الاجابة التى تعبر حقيقة عما أشعر به ، كل ما يمكننى قوله اننى اكتب لأننى وجدت نفسى هكذا ، ولأن هذا هو العمل الوحيد الذى أعيش من أجله ، واقنعته .

فى سنة ١٩٦٢ انتهت ندوة الأوبرا ، عندما تدخل رجال الأمن ، ووضعوا حدا لها ..

بداية الحرافيش ....

كانت جماعة عادل كامل التى تجتمع وتسهر مساء كل خميس ، تضم أحمد زكى مخلوف ، وأمين الذهبى ، وأحمد مظهر ، كان أحمد مظهر ضابطا فى الجيش وقتئذ ، وكان صديقا للروائى عادل كامل ، وكان هناك أيضا موظف اسمه محمود شبانه ، كان فى وزارة المالية ..

وانتظم نجيب محفوظ فى هذه السهرة .

يقول كاتبنا الكبير :

— سمينا هذه السهرة الحرافيش ، انضم اليها البعض ومات البعض ،

من الذين انضموا فى فترة مبكرة بعد أن تكونت ، المرحوم محمد عفيفى ، وأصبح بيته فى الهرم مقرا للسهرة ، ثم انضم الينا توفيق صالح المخرج ، ومعه صلاح جاهين ، ومصطفى محمود ، وكان أحمد بهاء الدين ، يزورنا من وقت الى آخر ، وطبعا كان هناك بهجت عثمان الرسام ، ازدهرت السهرة ، وكان شعارها الفن والضحك ، مرت علينا حرب فلسطين ولم نتغير ، علقنا على الحرب ، وناقشناها ، قامت ثورة ٢٣ يوليو ، ولم تتغير ، استمرت السهرة ايضا ، واستمر شعارنا موفوعا ، الفن والضحك ، لم يتغير كان التاريخ الذى نعيشه ينعكس على أحاديثنا وتعليقاتنا ، لم يتغير أى شىء ، حتى جاء يوم الأثنين الخامس من يونيو .

الهزيمة كاملة ....

يذكر نجيب محفوظ ان يوم الخامس من يونيو كان يوافق يوم الأثنين ، وكان الحرافيش كلهم مدعوين يوم الخميس التالى فى حفل زفاف صلاح جاهين الذى دعاهم قائلا « فرحى يوم الخميس القادم يا اخوانى ، وأنتم وحظكم بالنسبة للحرب ، إذا قامت أو لم تقم » وحدث ان نشبت الحرب ، ولم نذهب إلى فرح صلاح جاهين ..

وتغيرت سهرة الحرافيش تماما ..

يقول نجيب محفوظ :

— كان موضوع السهرة ، الفن ، والضحك ، والسياسة ، تغيرت وأصبحت السياسة هى المحور الأول والأخير ، كنا احيانا نسهر ونضحك حتى تؤلمنا عظام صدورنا ، بعد الخامس من يونيو لم نكن قادرين ابدا على الضحك ..

الاســـــكندرية ....

. . فى مقهى ديليبس بالاسكندرية حيث اعتاد نجيب محفوظ التردد يوميا لقراءة صحف الصباح ، والتأمل فى الضوء المقطر المغموس بمياه البحر المتمدد على مرمى النظر ، أمسك الكاتب الكبير بعلبة دواء ، الدواء اسمه « نيكوتيك أسيد » . . قال :

— تصور اننى منذ اسبوع أبحث عن هذا الدواء فى الصيدليات ولا أجده . . مع انه دواء مهم جدا لمرضى السكر ، يقيهم المضاعفات الجانبية . . الدواء رخيص ، ثمن العلبة سبعة عشر قرشا وهذا هو سبب ندرته ، بل واختفائه . .

تمهل قليلا ثم قال أن أحد الصيادلة أخبره بأن الشركة المنتجة للدواء طلبت رفع سعره ولكن وزير الصحة رفض ، ومن ثم توقفت الشركة عن انتاجه ، لأن تكلفة العلبة تتجاوز الثمن الفعلى ، أضطر إلى استخدام دواء أجنبى اسمه « أتروميدان » ، برغم ما يقال عن آثاره الجانبية . .

منذ حوالى خمسة وعشرين عاما ونجيب محفوظ مريض بالسكر ، اكتشفه مصادفة ، عندما ذهب ليعد وثيقة تأمين على الحياة وكان من شروط إعداد الوثيقة ، أن يكشف كشفا طبيا ، وأثناء إجراء التحليلات تبين أنه مريض بالسكر ، ومنذ ذلك الحين ، يطبق على نفسه نظاما صارما ، فى العمل ، فى الطعام الذى لا يتناوله إلا مسلوقا وبكميات محدودة ، والمشى اليومى ، وعندما يأتى الصيف يسافر إلى الاسكندرية ، ونجيب محفوظ يكره السفر ، لأنه يخل بنظام حياته الذى اعتاد عليه ، ويسبب له اضطرابا ، فى حياته ، لم يسافر إلى الخارج إلا مرتين فقط ، المرة الأولى سافر إلى اليمن ضمن وفد أدباء مصريين توجهوا إلى البلد العربى أثناء الحرب التى خاضها الجيش المصرى هناك ، تجول نجيب محفوظ فى اليمن ، وبهر بطبيعة البلد العربى

الجميلة التى لا نظهير لها فى أوربا ، حيث الجبال المكسوة بالخضرة ، والطبيعة بكر لم تعبث بها يد الانسان ، وكتب قصة عن تجربة جندى مصرى حارب فى اليمن . أما المرة الثانية فقد سافر ضمن وفد رسمى أثناء عمله فى وزارة الثقافة إلى يوغوسلافيا ، وهناك حدثوه عن مصيف دوبروفتك ، وعن جماله ، وعن روعته ، وكيف أن برنارد شو كتب عنه ما يشبه الغزل ، ويعلق نجيب محفوظ قائلا :

— تصور . . لم تبهرنى دوبروفتك ، لأن الاسكندرية أجمل منها ، لا مثيل لجمال هذه المدينة . .

فضـــلة الشـــقة ....

يتردد نجيب محفوظ على الاسكندرية فى شهور الصيف بانتظام ، انها المدينة الوحيدة التى يسافر اليها خارج القاهرة ، وفى شهور الصيف يتوقف عن العمل نتيجة لاصابته بمرض الحساسية ، ويخلو إلى البحر فى الثغر ، وإلى التأمل ، عرف ندوة توفيق الحكيم منذ الأربعينات ، كان يتردد عليها فى كازينو بترو الذى هدم فى السنوات الأخيرة ، كان الكازينو يحتل موقعا جميلا بجوار كابينة سيدى بشر ، وفى ساحته الخارجية كان توفيق الحكيم يعقد جلساته التى يحضرها عدد من أدباء الاسكندرية ، والأدباء القاهريين ، ورجال السياسة .

يقول نجيب محفوظ :

— لم أعرف الباشوات إلا فى ندوة توفيق الحكيم بعد ثورة يوليو ، كنت أجلس عند حافة القعدة ، أنظر إليهم من بعيد ، وكانوا ينظرون إلى بريبة أحيانا ، ويصمتون كأنما يظنوننى واحدا من جيل يوليو ، وكلهم تعرضوا لتطبيق قانون الاصلاح الزراعى ، أو فرضت عليهم الحراسة ، ومنهم من اعتقل أو سجن . . وكان من رواد ندوة الحكيم فى الاسكندرية ابراهيم باشا فرج أمده الله بالصحة . .

وحتى بداية السبعينات ، لم يكن لنجيب محفوظ شقة فى الاسكندرية ، بل كان ينزل بأحد البنسيونات ، ثم اعتاد على استئجار شقة مفروشة فى عمارة قريبة من سان استيفانو ، كان ايجار الشقة ثلاثين جنيها فقط فى الشهر ، ثم حدث أن صاحب العمارة بنى طابقا اضافيا ، وتبقت مساحة من المكان بنى فوقها شقة صغيرة مكونة حجرتين وصالة ضيقة ، وأراد الرجل أن يؤجرها بشكل دائم لأنه رجل متدين ، وأب لفتيات ، فقد كره أن يؤجرها إلى أسر من بين أفرادها شبان ، فكر فى نجيب محفوظ باعتباره أبا لفتاتين ، يقول :

— وفوجئت ذات يوم بالرجل يطلبنى فى وزارة الثقافة ، كان يحدثنى من الاسكندرية وحدثنى عن الشقة، التى بناها فوق المساحة المتبقية ، فوق (فضلة) المكان . . ويسألنى عما إذا كنت راغبا فى استئجارها . . ؟ رحت نازل جرى من المكتب ، ومسافر إلى الاسكندرية ، وعلى الفور وقعت عقد الايجار . . بالطبع فلولا هذه الشقة لكان مجيئنا إلى الاسكندرية أمرا صعبا ، فالايجارات خلال شهور الصيف الآن خيالية ويكفى أن تعرف أن الشقة التى كنا نستأجرها بثلاثين جنيها ، تؤجر الآن مثيلتها بأكثر من خمسمائة جنيه . .

النظام الحديدى ودردشة صباحية ....

اتفقنا أن نصحب نجيب محفوظ فى رحلة سيره اليومى على شاطىء الاسكندرية ، اتفقنا على أن نلتقى صباح اليوم التالى أمام كازينو سان استيفانو ، قال انه قد يتأخر دقيقة، أو دقيقتين ، فانضباطه يختل فى الاسكندرية ، لأنه لا يرتبط بعمل محدد ، وفى اليوم التالى انتظرنا ، كان الموعد فى السابعة والنصف ، وفى السابعة، والنصف تماما رأيناه قادما من الطريق المنحدر تجاه البحر ، قلت ضاحكا :

— فعلا . . النظام يختل . .

كان يرتدى قبعة من القش لتقيه الشمس ، ويمسك بصحف الصباح ، الجرائد الثلاث اليومية ، والمجلات التى صدرت فى نفس اليوم ، أنه يؤجل

قراءتها إلى المقهى ، من هذه النقطة يبدأ مشيه اليومى على كورنيش الاسكندرية ، أشار إلى كازينو سان استيفانو ، قال ضاحكا :

— زمان فى العشرينات كنا نأتى إلى هذا الكازينو ، وكان يضم قسمين للسباحة ، القسم الذى يقع إلى اليسار مخصص للرجال ، والشبان ، أما القسم الذى يقع إلى اليمين فكان مخصصا للنساء والأطفال ، ولأننى كنت صغير السن ، كنت أسبح مع السيدات ، كانت المرأة فى هذا الوقت فى حجم الكازينو نفسه ، حيث السمنة هى الموضة ، وكانت المايوهات طويلة ، مليئة بالكرانيش . . كان منظرا عجيبا . . !

يمشى نجيب محفوظ لمدة نصف ساعة ، المارة قلائل ، والعربات تندفع بسرعة كبيرة ، وزبد الموج الأبيض يتخلل البحر الأزرق فى هيئة خطوط طولية هنا وهناك ، ثم يبدأ البحث عن تاكسى ، يتجه إلى مقهى ديليبس فى ركن هادىء ، ثمة رجل وامرأة، يجلسان فى ركن قصى ، موعد غرامى مبكر ، فى نفس المقعد يجلس نجيب محفوظ ، يبدأ قراءة الصحف بعمق ، كذا المجلات ، وفى التاسعة والنصف يغادر المقهى ، نفس العادات الدقيقة ، والساعة الداخلية التى لا تخطىء التوقيت ، بعد أن انتهينا من قراءة الصحف ، قال نجيب محفوظ :

— هل رأيت مسلسل عصر الحب ؟

قلت :

— لم أستطع متابعته ، لكننى رأيت منه ثلاث حلقات . .

بدت عليه علامات الاعجاب :

— فى الواقع اننى سررت جدا برؤيته ، الاخراج متمكن ، والتمثيل ، خاصة سميحة أيوب التى قامت بدور السيدة « عين » وصلاح السعدنى ، وبقية الممثلين ، غير أن ما أعجبنى هو الاحتفاظ بروح النص الأدبى . .

قلت :

— ولكن المسلسل ظلم بسبب مباريات كأس العالم . .

وكأى حديث تلقائى ، ينتقل من موضوع إلى آخر ، قال :

— لقد شاهدت هذه المباريات ، انه مستوى رفيع من الكرة ، لقد

اندمجت فى الفرجة لدرجة اننى كنت أصيح من الحماس ، وأقوم مهللا . . لقد حركت فى هذه المباريات الشوق القديم للكرة . .

وربما لا يعلم كثيرون أن نجيب محفوظ كان من لاعبى الكرة المعروفين فى حى العباسية وكان مشهورا فى الجرى ، وكانت هذه ميزة كبيرة فى وقت كان عقل اللاعب يكمن فى قوة ساقيه وقدرتهما على الجرى ، ساد بيننا صمت . . ثم سألته :

— هل رأيت الترجمة العربية لرواية (بوليسيز) .

تساءل :

— هل صدرت ؟

قلت :

— منذ اسبوع فى القاهرة ترجمها الدكتور طه محمود طه ، أنجز الترجمة فى ثمانية عشر عاما ، انه حدث ثقافى هام . .

قال :

— بالفعل . .

قلت :

— خاصة أن العصر فيه مغريات عديدة ، تجعل انجاز عمل جاد كهذا أمرا يثير الاعجاب . .

. . متى قرأت بوليسيز ؟

قال :

— فى أوائل الأربعينات . . قرأتها فى الانجليزية . . كان الحصول على أى رواية أجنبية أمرا سهلا فى القاهرة وقتئذ . الآن لا أجد كتبا جديدة فى المكتبات عندما أمر بالمكتبات كل يوم جمعة . .

قلت :

— ربما يرجع هذا إلى قوانين الاستيراد التى تعامل الكتاب كأى سلعة أخرى . .

ضم شفتيه أسفا ، عندما استعد للانصراف ، سألته عن رقم تليفونه فى الاسكندرية . .

قال :

— لقد كان هذا التليفون بمثابة الهم بالنسبة لى ، تصور انه متعطل طوال العام ، ومنذ اسبوع عرفنى أحد أقاربى بعامل فى مصلحة التليفونات ، جاء واتفقت معه أن يأخذ ما يريده فى مقابل اعادة الحرارة ، لكنه بعد المعاينة وجد أن الخط لا يقع فى منطقة اختصاصه ، فامتنع عن اصلاحه ، يبدو أن العمال قسموا المناطق إلى اختصاصات ، فلا يعتدى أحدهم على اختصاص الآخر . . وانصرف العامل بدون أن يدلنى على زميله الذى يقع تليفونى فى دائرة اختصاصه . .

سهم قليلا ، ثم قال :

— شر البلية ما يضحك ، لقد قرأت فى الصحف أن الملك فهد اتصل بريجان وضغط عليه ليعيد المياه إلى بيروت الغربية المحاصرة ، وقطع المياه هذا عمل وحشى وغير انسانى . . فكرت أن يتصل الملك فهد بريجان ليوسطه فى اعادة الحرارة إلى تليفونى . .

وننصرف من ديليبس إلى شوارع الاسكندرية المغموسة فى الضوء حيث الحركة ، والنهار يتصاعد مقتربا من منتصفه . .

فى العاشرة والنصف يدخل نجيب محفوظ إلى ندوة توفيق الحكيم فى كازينو الشانزليزيه ، تدور مناقشات شتى ، ثقافية، وسياسية ، وفى الواحدة تماما ينصرف ، لقد اعتاد أن يتناول غداءه فى مطعم بسترونس القريب من جليم ، هناك يعدون له وجبة خاصة ، الخضار المسلوق ، واللحم المسلوق طعام مرضى السكر ، يقول :

— لاقيت عناية لم يحظ بها أى زبون ، وفى أحد الأيام قال لى مدير المحل ، ان فايق القصبجى يسلم عليك ويوصى بك خيرا . . وعلى الفور تذكرت فايق القصبجى ، لقد كان زميلى فى مدرسة الحسينية الثانوية بالعباسية، ، خلال العشرينات ، وهو الآن صاحب محلات بسترونس بعد أن تركها صاحبها الأجنبى . .

يصمت نجيب محفوظ قليلا ، يحملق إلى بحر اسكندرية المترامى إلى الأفق . . ثم يعلق بكلمة واحدة :

دنيا !

مع مصطفى أمين لأول مرة ....

تسببت ماسورة مياه فى احداث تحول هام فى حياة نجيب محفوظ ! . . لقد رشحت ماسورة فى بيته ، وكان لا بد من تغييرها ، وكان ذلك يعنى مجىء العمال ، وضجة الحفر ، والخلع ، والتبديل ، مما يجعل البقاء فى البيت أمرا مزعجا ، بعد عودة كاتبنا الكبير من رحلته اليومية التى يخترق فيها القاهرة من شارع النيل عبر كوبرى أكتوبر ، ثم الجزيرة فكوبرى قصر النيل ، ثم ميدان التحرير ، وفى الثامنة تماما يصل إلى مقهى بوسط المدينة ، يمكنك أن تضبط الساعة عند دخول نجيب محفوظ إلى المقهى ، ويمكنك أن تضبطها أيضا عندما يطلب فنجان القهوة ، ولعلاقة نجيب محفوظ بالساعة حديث آخر ، ولكن عرف عنه انضباطه الشديد ، فكل شىء فى حياته يتم بحساب زمنى دقيق ، بدءا من الثامنة وحتى التاسعة صباحا يتصفح الصحف والمجلات ، ثم يدفع الحساب ، ويفارق المقهى ليستقل عربة تاكسى عائدا إلى البيت ، هذا هو البرنامج الصباحى الذى لم يتغير منذ أن أحيل نجيب محفوظ إلى المعاش فى عام ١٩٧٢ ، منهيا خدمته الحكومية وعلاقته بدنيا الوظيفة . .

فى هذا اليوم الحار جلست إلى كاتبنا الكبير فى مقهى ريش ولاحظت انه مضطرب قليلا ، ولما اقتربت الساعة من التاسعة تأهبت للقيام ، ولكنه أخبرنى أنه سيبقى قليلا ، ثم حكى لى بهم كبير ما جرى من تلف الماسورة ، وكيف أن البيت مقلوب رأسا على عقب الآن ، ودار حديثنا حول ندرة الحرفيين ، وارتفاع أجورهم ، قال ضاحكا :

— تصور أن هذه الماسورة كلفتنى مبلغا يفوق المبلغ الذى دفعه أبى ثمنا لبيت العباسية، أى أكثر من ألف جنيه . .

دارت عقارب الساعة ، وتجاوزت التاسعة بنصف ساعة ، عندئذ قلت

مقترحا :

— ما رأيك فى أن نمشى معا إلى مكتبى فى أخبار اليوم ؟

فكر قليلا ، وأزاح نظارته إلى أعلى ، ثم قال :

— اننى لم أذهب إلى أخبار اليوم أبدا . .

قلت :

— وهذا أدعى . . تعال نقض وقتا نزور خلاله الدار ، ثم يصحبه أحد زملائى إلى البيت فى سيارته . .

أطرق لحظات ثم قال :

— والله فكرة . .

وهكذا غادرنا مقهى ريش إلى دار أخبار اليوم . .

صحافة زمان ....

نجيب محفوظ ابن نكتة ، خفيف الظل ، يجيد فن توليد النكتة من الحوار العادى ، وعندما يطلق تعليقا ساخرا ، تجلجل ضحكته مرتفعة صافية وكأنها لن تنتهى . .

وفى الأربعينات كان يسهر فى الحسين إلى ساعة متأخرة مع أصحاب زمان ، وكان باستطاعته أن يدخل « قافية » مع العديدين ويهزمهم ، شخص واحد فقط كان بإمكانه أن يهزمه ، انه (عم ابراهيم) بائع الكتب المتجول ، يعرفه أبناء حى الحسين القدامى ، كان قصيرا ، بدينا ، يرتدى جلبابا ، ويمشى يهز رأسه باستمرار ، حاملا مجموعة من الكتب الدينية وكتب التراث الشعبى ، وكان يرى فى أوقات مختلفة من الليل والنهار فى مقاهى الحسين ، خاصة الفيشاوى ، كان (عم ابراهيم) يجلس فى مواجهة نجيب محفوظ وصحبه ، ويدخل معهم قافية ، ويهزمهم جميعا ، يقول الدكتور أدهم رجب صديق عمر نجيب محفوظ :

— كان نجيب محفوظ ابن نكتة !

كان فى رمضان يصحبنا إلى الفيشاوى القديم فى أواخر العشرينات وأوائل

الثلاثينات حيث كان هناك أولاد نكتة محترفون ، يتصايحون بالنكتة الجنسية، السافرة ، وياويل من يستلمون قافيته ، فكان نجيب محفوظ يتصدى لهم بمقدرة غريبة على توليد الأفكار وتخليقها بنكت تجعلهم أضحوكة الجميع ، وكان صوته جهوريا ، وخارقا فى سرعة ابتداع الفكرة ، حتى انه كان يتصدى لعشرين شخصا دفعة واحدة بالنكتة تلو النكتة حتى يسكتهم جميعا ، وكذا نحن رفاق صباه ننقلب إلى (مطيباتية) له ، فإذا بخصومه ينضمون إلينا ويصبحون هم الآخرون (مطيباتية) له . كان رجلا جبارا فى النكتة إلى حد انه كان يضحك خصومه على أنفسهم . .

ما لم يقله الدكتور أدهم رجب ، ان عم ابراهيم بائع الكتب كان الوحيد الذى يمكنه أن يقهر نكتة نجيب محفوظ ، وقد ظلا أصدقاء ، كلما ذهب إلى الفيشاوى يجىء عم ابراهيم ويجلس إليه ، حتى توفاه الله فى الستينات ، ان هذا الجانب الخفى من شخصية نجيب محفوظ لا يعرفه الكثيرون ، خاصة الذين جلسوا إليه فى ندواته الأدبية ، حيث يجيد اقامة حاجز وهمى بينه وبين الآخرين ، ولكن هذا الجانب انعكس فى أدبه ، ويكفى أن ترجع إلى صفحات الثلاثية حيث سهرات أحمد عبدالجواد ، ومجالسه . .

فى الطريق إلى أخبار اليوم تحدثنا عن الصحافة أيام زمان ، وذكرت له صفحات من كتاب الصحفى الكبير مصطفى أمين « من عشرة إلى عشرين » ، عن صحف العشرينات ، عندما كان الردح فى مانشيتات الصحف ، وكانت إحدى الصحف تكتب عن أحد كبار كتاب حزب الوفد . كانت والدته فقيرة لم يكن لها مرتزق غير المعونة والعطف . . وكان يسكن فى الفجالة ، فى حجرة مظلمة أجرتها فى الشهر ستون قرشا ، وكانت هذه المعلومات كلها كاذبة ، كذلك كان التحدث بوقاحة عن زوجات وأمهات، وأخوات وعمات زعماء الوفد ، وذات يوم خرجت جريدة، الكشكول وهى إحدى صحف الحكومة ، تنشر بعنوان « النحاس يطرطر » ويضحك نجيب محفوظ :

— لقد ذكرتنى بمجلة اسمها « المطرقة » كانت تطبع على ورق لحمة ، وكان صاحبها يمتلك دكانا صغيرا فى شارع الخليج ، كان وفديا ، وضد

حزب الأحرار الدستوريين ، كان ينشر خبرا فى الصفحة الأولى يقول : ضبط
نلان الحر الدستورى وهو يمشى فى ميدان المحطة » . .

يضحك نجيب محفوظ . .

— وكأن انتماء الانسان إلى الحزب تهمة ، أو يكتب فى صفحة الوفيات ،
حمدلله . . مات فلان الفلانى وهو حر دستورى . .

نضحك معا ، وأتذكر ما رواه لى صديقى الكبير عن عروض كثيرة قدمت
يه للعمل فى الصحافة ، ولكنه رفضها ، اخلاصا منه للأدب . .

ونصل إلى دار أخبار اليوم . .

اللقــــاء الأول ....

. . لأول مرة يدخل نجيب محفوظ دار أخبار اليوم ، اقترحت على صديقى
حمد عبدالرحمن أن ينتهز الفرصة ويلتقط مجموعة من الصور للكاتب
كبير ، ولأن محمد عبدالرحمن يعد أستاذا فى تصوير البورتريه ، فقد دعا
جيب محفوظ بلباقة إلى الاستديو الخاص والملحق بقسم التصوير ، همست
، أذنه أن الرجل مصاب بحساسية ضد الضوء خاصة فى الصيف ، وبالفعل
نجز محمد عبدالرحمن عمله بسرعة ، وفى مكتبه وضع أمامنا ستة أفلام
حتوى على حوالى مائة صورة لنجيب محفوظ ، قلت له :

— لقد التقط لك أكثر من مائة صورة . .

أبدى دهشته . .

— انه لم يستغرق إلا دقائق . . هو كان بيصور من ورايا ؟ ولم يكن من
المعقول أن يوجد نجيب محفوظ فى الطابق الثانى ، ومصطفى أمين فى الطابق
التاسع ، ولا يلتقيان فكل منهما يمثل قمة الفن الذى يعمل فى مجاله ، كما
أنهما ينتميان إلى جيل واحد ، بل انهما ولدا فى سنة واحدة ، وعاشا أحداثا
واحدة ، من هنا كان اهتمام نجيب محفوظ بأن يتابع مذكرات مصطفى أمين
التى تنشر تحت عنوان « من واحد إلى عشرة » ، و « من عشرة إلى
عشرين » ومعا صعدنا إلى الطابق التاسع . .

ثــورة ١٩١٩ ....

قال مصطفى أمين :

— كان يجب أن يتم هذا اللقاء منذ ثمانية وثلاثين سنة . . هل تذكر ؟ . . لقد أرسلت إليك مع صحفية كانت تعمل فى أخبار اليوم لننشر لك قصتين فى الشهر . .

هز نجيب محفوظ رأسه وقال :

— لو أن ذلك حدث ، ربما كان تغير مسار حياتى . .

لقد حدث عندما صدرت أخبار اليوم ، أن التحق توفيق الحكيم كاتبا بها ، وقرأ مصطفى أمين إحدى روايات نجيب محفوظ ، وأعجب بها ، كان محفوظ وقتئذ شابا وكاتبا مجهولا ، غير ان مصطفى أمين استشعر الموهبة الكامنة فى كتاباته ، واستفسر عنه ، وعلم انه يمت بصلة إلى إحدى المحررات العاملات بأخبار اليوم ، وأرسل معها عرضا إليه ، أن يكتب قصتين قصيرتين فى الشهر مقابل أربعين جنيها ، كان مرتب نجيب محفوظ فى هذه الفترة ثمانية جنيهات فقط من وظيفته بوزارة الأوقاف ، وكان المبلغ يمثل اغراء كبيرا ، انه يعادل الآن ما قيمته أكثر من أربعمائة جنيه شهريا ، ولكن نجيب محفوظ لم يقبل . .

— كنت مشغولا فى هذا الوقت بكتابة روايتى « زقاق المدق » . . وكان معنى كتابة قصتين كل شهر أن أخرج من الجو العام للرواية . .

ويقول مصطفى أمين :

— لقد فسرت الأمر وقتئذ على انك رفضت لأن موقف أخبار اليوم كان ضد مصطفى النحاس وأنت معروف بوفديتك . .

ويضحك نجيب محفوظ .

ويقول مصطفى أمين :

— على أية حال كان من الممكن نشر الرواية مسلسلة . .

ويقول نجيب محفوظ :

— لو تم ذلك لتغير مجرى حياتى كما قلت . .

ثم يسأل :

— متى ستنتهى من كتابة من عشرين إلى ثلاثين ؟

يجيب مصطفى أمين :

— اننى أكتب فى المذكرات الآن وأمل أن أنتهى منها إذا عشنا ، وكان لنا أجل . . وبعدها أكتب من أربعين إلى خمسين ، ثم من خمسين إلى ستين . . ولكن هل يسمح لنا العمر بذلك . .

وألاحظ هذه النبرة المزعجة فى حديث مصطفى أمين « إذا عشت » وإذا سمح لنا العمر . .

قال لنجيب محفوظ :

— لقد قرأت قصتك ، الشيطان يعظ ، ورأيت الفيلم ، انها قصة سياسية من الدرجة الأولى ، لكنها لم تأخذ حقها من النقد . .

ويصمت نجيب محفوظ شأنه عندما يسمع من يتحدث عن إحدى قصصه واقترح أن يرى مجموعة الصور النادرة التى يحتفظ بها الأستاذ مصطفى أمين عن ثورة ١٩١٩ ، وننتقل إلى نهاية الحجرة ، حيث مجموعة الصور النادرة . .

مظاهرات بالملاية اللف ....

يمكننى القول أنه متحف حى ونادر لأحداث ثورة ١٩١٩ ، كنا واقفين ، بينما الأستاذ مصطفى أمين يقدم إلينا الصور واحدة إثر الأخرى ، واستغرق كاتبنا الكبير فى الرؤية ، صور المظاهرات ، أصحاب الجلاليب ، حفاة الأقدام .. مظاهرات النساء ، نساء يرتدين الملاءات اللف ، والحبرات ، والرجال يحفون بهن .

يقول مصطفى أمين :

— أنظر . . ما من رجل يعاكس سيدة ، ما من تصرف خارج .

ويسأل نجيب محفوظ :

— هل رأيت مظاهرات النساء الشعبيات بالملاءات اللف ؟

يومىء مصطفى أمين :

— نعم . . نعم . .

وتتتابع الصور ، مظاهرات أمام فندق شبرد القديم ، بيت الأمة محاصر بالبوليس ، جندى انجليزى يحرس تراما ، عربة تاكسى قديمة ، شهيد فقير فى أحد الأحياء البلدية يرقد قتيلا فوق أرض الشارع . .



إلى هنا تتوقف رحلتنا مع الأستاذ فى المكان .. ولنصغى إلى ما رواه . ما استمده من ذكرياته ..

الطفـــولـة .....

.. عندما أرحل بذاكرتى إلى أقصى بدايات العمر ، إلى الطفولة الأولى ، أتذكر بيتنا فى الجمالية شبه خال ، أنجب والدى من قبلى ستة أشقاء ، جاءوا كلهم متعاقبين ، أربع إناث وذكرين ، ثم تتوقف والدتى عن الإنجاب لمدة تسع سنوات . ثم .. أجىء أنا ، عندما وصلت إلى سن الخامسة كان الفرق بينى وبين أصغر أخ لى خمس عشرة سنة ، البنات تزوجن كلهن تقريبا فيما عدا واحدة لا أذكر أى شىء عن حياتها فى البيت ، أما شقيقاى فقد تزوجا بالفعل ، أحدهما دخل الكلية الحربية وسافر للخدمة فى السودان ، لهذا .. لا أتذكر فى البيت إلا والدى ووالدتى ، لا أذكر أن أى إنسان آخر شاركنا البيت إلا الضيوف ، عمتى ، ابنة عمتى ، ناس من الخارج ، أغلب حياتى فى بيتنا كأنى طفل وحيد ، لكن طبعا كنا نزور الأشقاء فى بيوتهم .. لهذا إذا ما حاولت استرجاع ذكرياتى عنهم ، فإننى أتذكرهم فى بيوتهم وليس فى بيتنا ، كانت علاقتى بهم علاقة الصغير بالكبار ، أساسها الأدب والحشمة ، لم أعرفهم كأشقاء أعيش معهم حياتهم اليومية ، ألعب معهم ، أضحك معهم ، ولذلك كانت علاقة الأخوة من العلاقات التى أتابعها فى حياتى باهتمام ، فيما بعد كان من أصدقائى أشقاء ، كنت أتابعهم ، أسأل نفسى ، ترى .. لو أن إخوتى قاربونى فى السن ، كيف ستمضى علاقتى معهم ، كان من بين أصدقائى ثلاثة أشقاء ، كانوا دائما يلعبون معا ، يذهبون إلى النزهة معا ، يضحكون معا كنت أتابعهم واسأل نفسى ، هل كنت سأصبح مثلهم .. كنت محروما من الاحساس بالأخوة ..

لهذا تلاحظ دائما اننى أصور فى كثير من أعمالى علاقات أخوة بين أشقاء ، وهذا نتيجة لحرمانى من هذه العلاقة ، يبدو هذا فى الثلاثية ، فى بداية ونهاية ، فى خان الخليلى ..

لم أجرب هذه العلاقة فى الحياة الحقيقية ، كنت دائما أنظر إليها كشىء محرم أو مجهول ، كنت أتمنى أن يكون لدى نفس العلاقات بين أصدقائى الإخوة ..

اللعب ....

طبعا البيت يرتبط فى ذكرياتى دائما باللعب ، خاصة السطح ، فيه مجال كبير للعب ، فيه خزين ، بط ، فراخ ، كتاكيت صغيرة ، زرع فى أصص ، لبلاب ، ريحان ، ثم السماء الفسيحة ، كنا نسكن بيتا مستقلا ، أو بالمعنى الدارج ، بيت من بابه ، ومن الممكن أن تطلق عليه « بيت رأسى » بالمعنى الحديث ، كل طابق كان يحتوى على حجرة صغيرة وأخرى كبيرة ، ثم أخيرا السطح .. حيث نجد غرفة صيفية ، كنا ننام فيها خلال أيام الحر ، كان البيت يتكامل إلى أعلى ، يعنى فى الطابق الأول غرفة الاستقبال ، فى الطابق الثانى غرفة الطعام ، وهكذا ربما لصغر مساحة الأرض ، كنا أيضا نلعب فى الشارع ، مع أطفال وبنات الجيران ، كان البيت يقع فى مواجهة قسم الجمالية ، يطل على ميدان بيت القاضى ، لكننا كنا نتبع مشيخة درب قرمز .

ملحوظة :

« أزيل البيت الذى شهد مولد أديبنا الكبير ، ومكانه الآن منزل حديث من ثلاثة طوابق ، تحته مقهى ، أما حارة درب قرمز فمازالت كما هى ، والقبو نفسه موجود ، ويمتد تحت أحد المساجد الأثرية » .

كانت الحارة فى ذلك الوقت عالما غريبا ، حيث تتمثل فيها جميع طبقات الشعب المصرى ، تجد مثلا ربعا ، يسكنه ناس بسطاء ، أذكر منهم عسكرى بوليس ، موظف صغير فى « كبانية » المياه ، امرأة فقيرة تسرح بفجل أو لب ، وزوجها ضرير ، لهم حجرة فى الربع ، وأمام الربع مباشرة

تجد بيتا صغيرا تسكنه امرأة من أوائل اللواتى تلقين التعليم وتوظفن ، ثم تجد بيوت أعيان كبار ، مثل بيت السكرى ، بيت المهيلمى ، بيت السيسى ، وبيوت قديمة أصحابها تجار ، أو من أولئك الذين يعيشون على الوقف ، كنت تجد أغنى فئات المجتمع ، ثم الطبقة المتوسطة ، ثم الفقراء .. أنا لا أدرى ما هو شكل الحارة الآن ، ولعلك أنت تعرفه ، لأنك عشت فى المنطقة حتى السبعينات ، كان الجميع يختلطون فى رمضان ، كانت بيوت الأثرياء تفتح « المنادر » للفقراء ، كان يمكن لأى شخص من أهل الحارة أن يدخل ويأكل حتى الغرباء ، لقد شاهدت اندثار هذه التركيبة للحارة المصرية فى الثلاثينيات ، العائلات الثرية هاجرت إلى العباسية الغربية ، أما العائلات المتوسطة ، التى أنتمى إليها ، فقد رحلت إلى العباسية الشرقية ، كانت هناك تكية أيضا ، وكان فيه ناس من العجم أو الأتراك كنا نراهم من بعيد ، كان فيه معالم فى المنطقة علقت بذهنى ، لعل أبرزها الفتوة ، كان وجود الفتوات معترفا به من الحكومة نفسها ، كنا نستيقظ على الزفة فى بيت القاضى عندما تدب فيها المشاجرات ، وفى ثورة ١٩١٩ لعبوا دورا كبيرا ، أنا « شفت » بعينى الفتوات وهم يكتسحون قسم الجمالية ، ويحتلونه . قلت لك انه كانت فوق السطح حجرة ، كان لها نافذة تطل على الميدان ، منها رأيت فى طفولتى كل المظاهرات التى مرت ببيت القاضى .

ملحوظة :

القبو ، التكية ، الفتوة ، الخلاء ، من معالم الحارة الثابتة عند نجيب محفوظ ، وعندما يحدثنا عن الأتراك أو العجم لعلنا نتذكر تلك الأناشيد الغامضة فى « الحرافيش » التى تنبعث من خلف أسوار التكية ، وإذا كان نجيب محفوظ قد رأى فى طفولته المبكرة استيلاء الفتوات على قسم الجمالية والمظاهرات من خلال النافذة ، فقد استعاد أديبنا بعض ما رأى فى « حكايات حارتنا » ، ولنصغ إلى الحكاية الثانية عشرة ..

.. ماذا يحدث للدنيا ؟

يجتاحها طوفان ، يقلقلها زلزال ، تشتعل بأطرافها النيران ، تتفجر بحناجرها الهتافات .

الميدان يكتظ بالآلاف ، لم يقع ذلك من قبل ، هديرهم يرج جدرانِ حارتنا ويصم الآذان ، إنهم يصرخون ، وبقبضات أيديهم يهددون .

وأحملق فيما يجرى من فوق سور السطح ، وأتساءل عما يحدث للدنيا ..

وتتلاطم الأحاديث مشحونة بكهرباء الوجدان ، وينهمر سيل من الألفاظ الجديدة ، السحرية ، سعد زغلول ، مالطة ، السلطان ، الهلال والصليب ، الوطن ، الموت الزؤام .

الأعلام ترفرف فوق الدكاكين ، صور سعد زغلول تلصق بالجدران ، إمام المسجد يظهر فى شرفة المئذنة ويهتف ويخطب .

وأقول لنفسى أن ما يحدث غريب ، ولكنه مثير ومسل شديد البهجة .

غير أننى أشهد مطاردة .

يندفع أناس داخل حارتنا ، يرمون بالطوب ، يتحصنون بالأركان .

يقتحم الحارة الفرسان بقبعاتهم العالية وشواربهم الغليظة ، تنطلق أصوات حادة مخيفة تعقبها صرخات ، أنزع من مكان المراقبة إلى الداخل فتطالعنى وجوه مذعورة وهمسات تقول :

— إنه الموت ..

نرهف السمع وراء النوافذ المغلقة ، لا شىء إلا أصوات متضاربة ، وقع أقدام ، صهيل خيل ، أزيز رصاص ، صرخة موجعة ، هتاف غاضب . يتواصل ذلك دقائق فى الحارة ثم يسود الصمت .. ويتردد الهدير ولكن هذه المرة من بعيد ثم يسود صمت مطبق .

وأقول لنفسى إن ما يحدث غريب ومزعج ومخيف . وأعرف

بعض الشيء معالم الألفاظ الجديدة ، سعد زغلول ، مالطة ، السلطان ، الوطن ، وأعرف بوضوح أكثر الفرسان البريطانيين والرصاص والموت . وتزورنا أم عبدة في غاية من الإنفعال . تحكى حكايات عن الضحايا والأبطال ، وتنعى إلينا علوة صبى الفران ، وتؤكد أن جياد الفرسان حرنت أمام سور التكية ، وألقت الفرسان عن متنها .

[وأقول لنفسى أن ما يحدث حلم مثير لا يصدق ..] .

تنتهى الحكاية ، ويواصل نجيب محفوظ التذكر ..

التيه فى الزمن ....

من الشخصيات التى لا أنساها أيضا النساء اللواتى كن يترددن على البيت ليقمن بإعداد الأحجبة ، وأعمال السحر ، كنت أرقبهن عندما يجئن إلى أمى ، يجلسن معها ، يتحدثن . من معالم طفولتى أيضا ، الكتاب . كان النظام التعليمى وقتئذ يقضى بأن نذهب أولا إلى الكتاب ، ثم نلتحق بالمرحلة الابتدائية ، علمنا الشقاوة ، ولكنه علمنا مبادىء الدين ، ومبادىء القراءة والكتابة ، كان مختلطا للجنسين ، كان مقر الكتاب فى حارة الكبابجى ، بالقرب من درب قرمز ، لا أدرى ماذا يحوى الآن ؟ ربما كنت تعرفه ، ذهبت إليه فى الرابعة ، لكن الغريب أننى فى هذه السن المبكرة بدأت أرى أشياء أخرى خارج الحارة ، تذكر أننى حدثتك من قبل عن غرام والدتى بالآثار ، كثيرا ما ذهبنا إلى الانتكخانة ، أو الاهرام ، حيث أبو الهول ، لا أدرى سر هوايتها تلك حتى الآن ؟ ، كنا نخرج بمفردنا ، وأحيانا مع الوالد ، تجرنى فى يدها ، ونمضى إلى الانتكخانة ، خاصة حجرة المومياءات ، زرناها كثيرا ، كانت أمى تتمتع بحرية نسبية ، وبعكس ما تبدو عليه « أمينة » فى الثلاثية ، التى لم يكن مسموحا لها بالخروج إلا بإذن من أحمد عبد الجواد ، تسألنى ، من أين إذن استوحيت شخصية أحمد عبد الجواد ؟

إننى أذكر هنا أسرة كانت تسكن فى مواجهتنا ، كان البيت مغلقا باستمرار ، نوافذه لا تفتح أبدا ، ولا يخرج منه إلا صاحبه ، رجل شامى إسمه الشيخ رضوان ، مهيب الطلعة ، وكانت أمى تصحبنى لزيارة هذه الأسرة ، وكنت أرى زوجة الرجل غير المسموح بخروجها ، كنا نزورها ، ولكنها لا تزورنا ، لانه غير مسموح لها ، وكانت ترجو والدتى أن تتردد عليها ، كان لى أصدقاء كثيرون من الأطفال ، وفيما بعد ، عندما انتقلنا إلى العباسية ، وكان عمرى اثنتى عشرة سنة أصبحت على صلة ببعضهم ، ثم اختفوا جميعا عنى فى زحام الحياة ، جميع أصدقاء طفولتى فيما عدا واحدا التقيت به منذ عشرين أو خمس وعشرين سنة فى ميدان الجيش أثناء توجهى إلى مقهى عرابى ، كانت قد مضت سنوات عديدة ، طويلة ، ولم ير أحدنا صاحبه ، لكننا تعرفنا إلى بعضنا ، ثم اختفى ، ولم أره بعد ذلك أبدا ، وهكذا ضاع أصدقاء طفولتى فى الزمن وزحام الحياة .

كانت والدتى تصحبنى معها دائما لأننى الوحيد ، تصحبنى فى زياراتها إلى الأهل ، والجيران ، وهكذا رأيت كثيرا من مناطق القاهرة ، شبرا ، العباسية ، كثير من المناطق التى تقع فى قلب القاهرة الآن كانت حدائق وحقولا ..

الـوالـد ....

كان والدى يتحدث دائما فى البيت عن سعد زغلول ، ومحمد فريد ، ومصطفى كامل ، ويتابع أخبارهم باهتمام كبير ، كان إذ يذكر إسم أحد من هؤلاء فكأنما يتحدث عن مقدسات حقيقية ، كان يتحدث عن أمور البيت مع أمور الوطن فى وحدة واحدة ، كل حدث صغير فى حياتنا اليومية كان يقترن بأمر عام ، فهذا الأمر وقع لأن سعد قال كذا ، أو لأن السراى ، أو لأن الانجليز .. ، كان والدى يتكلم عنهم بحماس وكأنه يتحدث عن خصوم شخصيين أو أصدقاء شخصيين ، كان والدى موظفا ، وعندما وصل إلى السن الذى يستحق فيه المعاش استقال ، كان موظفا طبقا لكادر قديم لا نعرف عنه الآن شيئا ، بعد استقالته عمل مع أحد أصحابه التجار ، كان صديقه تاجرا كبيرا يسافر كثيرا إلى بور سعيد ..

ملحوظة :

نلاحظ هنا أن أحمد عبد الجواد فى الثلاثية سافر مرة واحدة خارج القاهرة ، وكانت إلى بورسعيد بهدف تجارى ، وخلال هذه الزيارة خالفت أمينة تعليماته بعدم الخروج ، وأصابها ما أصابها .

كان البيت لا يوحى بأنه من الممكن أن يخرج منه أى إنسان له صلة بالفن ، الثقافة الوحيدة فى البيت ذات طابع دينى ، وصلته بالحياة العامة ذات صبغة سياسية ، كان والدى صديقا للمويلحى ، وقد أهداه نسخة من كتاب « حديث عيسى بن هشام » نسخة أذكرها جيدا ..

ملحوظة :

يذكرنا نجيب محفوظ هنا ببعض ملامح الأدب فى الثلاثية ، ولكن هناك معالم أشد وضوحا ، خاصة فى « حكايات حارتنا » نجد فى الحكاية رقم « ١٤ » و« ١٥ » و« ١٨ » و« ١٩ » و« ٢٣ » ، ولنستعد معا الحكاية رقم « ٢٣ » ..

[.. ذات صباح تدهمنى اليقظة بعنف ، أستيقظ مجذوبا من عالم الغيب بقبضة مبهمة ، يلفنى تيار من الطنين ، أنصت فيقف شعر رأسى من ترقب الشر ، أصوات بكاء تتسلل إلى من الصالة ، تغرز أفكار السوء أسنانها فى لحمى ، ويتخايل لعينى شبح الموت . أثب من الفراش مندفعا نحو الباب المغلق ، أتردد لحظة ثم أفتحه بشدة لأواجه المجهول ..

أرى أبى جالسا ، أمى مستندة إلى الكونصول ، الخادمة واقفة عند الباب ، الجميع يبكون .. وترانى أمى فتقبل على وهى تقول :

— أفزعناك .. لا تنزعج يا بنى ..

أتساءل بريق جاف :

— ماذا ؟

فتهمس فى أذنى بنبرة مختنقة :

— سعد زغلول .. البقية فى حياتك .
فأهتف من أعماقى :
— سعد !
وأتراجع إلى حجرتى .
وتتجسد الكآبة فى كل منظر ..] .

ما تبقى ....

« .. لا أذكر أبدا أيا من زملائى فى الكتاب ، أو فى المدرسة الابتدائى التى كانت مواجهة لمسجد الحسين ، التى يوجد فيها ساعة أثرية . من هذه المدرسة رأيت المظاهرات ، كانت المنطقة دامية ، يمكنك القول أن أكبر شىء هز الأمن الطفولى هو ثورة ١٩١٩ ، شفنا الانجليز ، وسمعنا ضرب الرصاص ، وشفت الجثث والجرحى فى ميدان بيت القاضى ، شبفت الهجوم على القسم ، كيف أنظر إلى طفولتى الآن ؟

لقد انعكست حياتى فى الطفولة فى الثلاثية إلى حد ما ، وفى « حكايات حارتنا » بشكل أكبر ، كانت طفولتى طبيعية ، لم أعرف الطلاق ، أو تعدد الزوجات ، أو اليتم ، طفولة طبيعية بمعنى أن الطفل نشأ بين والدين يعيشان حياة هادئة مستقرة ، لم يكن أبى سكيرا ، أو مدمنا للقمار ، لم يكن شديد القسوة ، مثل هذه الأمور لم يكن لها وجود فى حياتى ، حتى ما يكدر أخفى عنى ، كان المناخ الذى نشأت فيه يوحى بمحبة الوالدين ، ومحبة الأسرة ، وكنت أقدس الوالدين والأسرة ، كان الخيط الثقافى الوحيد فى الأسرة هو الدين ، فى سنة ١٩٣٧ توفى والدى عن خمسة وستين عاما ، كنت أعيش مع والدتى فى العباسية ، التى انتقلنا إليها منذ عام ١٩٢٤ تقريبا ، لكن المكان الذى بقيت مشدودا إليه ، أتطلع إلية دائما هو منطقة الجمالية .. » .

بين العباسية والحسين ....

.. فارقت منطقة الجمالية إلى العباسية وعمرى إثنا عشر عاما ، وكان لانتقالنا إلى العباسية تأثير كبير على حياتى ، ولم تكن العباسية التى انتقلت إليها فى تلك السن المبكرة تشبه العباسية الحالية ، الآن ، تقوم المبانى فى كل مكان ، والشوارع تتقاطع وتتجاور ، لكن عباسية زمنى القديم كانت تحوى الكثير من الخضرة ، والقليل من المبانى ، كانت البيوت صغيرة من طابق واحد ، وكل بيت تحيطه حديقة ، ثم تمتد الحقول حتى الأفق ، كان والدى يصحبنى مع والدتى إلى منطقة حدائق القبة ، فيما يلى كوبرى الحدائق ، وهناك نركب ترولى صغيرا يمشى فوق قضبان ، يوغل بنا فى الحدائق ، كان السكون عميقا ، والمنطقة كبيرة جدا لا تحوى إلا عددا قليلا من القصور ، كل هذا راح ، الحدائق اختفت ، والمبانى ملأت المكان ، لم تكن العباسية برغم ذلك منفصلة تماما عن الحى القديم ، وجدت منطقة الحسينية ، وعرابى الفتوة المشهور ، نفس التقاليد .

قلت إن انتقالى إلى العباسية أحدث نقلة كبيرة في حياتى ، الغريب أن أصدقائى ، أصدقاء العباسية ، أصدقاء الصغر ، استمرت علاقتى بهم حتى هذه اللحظة ، باستثناء الذين انتقلوا إلى رحمة الله ، حتى بعد أن فرق بيننا المكان ، أحدهم إلى المعادى ، وآخر إلى الهرم ، لكننا ، عندما نلتقى ، حتى بعد انقطاع زمنى ، فكأننا نستأنف لقاء لم ينقطع إلا بالأمس فقط ، كان أصدقاء العباسية مجموعة متناقضة ، فيها كل نوعيات البشرية ، من أسماها إلى أدناها ، فيهم ناس تقلدوا أكبر المناصب المهنية ، أطباء ومهندسين ومحاسبين ، ومنهم بلطجية ، وبرمجية ، ومنهم فتوات ، والعلاقة بيننا كانت حميدة ، حتى الشرير منهم كان يمارس شره بعيدا عنا ، كانوا أكثر من مجموعة ، لكننى كنت صديقا للكل ، كلهم شخصيات لا تنسى ،

لم تهن العلاقات ، حتى بالبعد ، وهذا غريب !

ملحوظة لابد منها :

« .. استوحى أديبنا الكبير شخصيات عديدة من أصدقاء العباسية فى رواياته ، ولكننى أشير إلى عمل واحد ، كتب فيه عن بعضهم بشكل مباشر ، أقصد « المرايا » ، راجع الفصول الخاصة بجعفر خليل ، خليل زكى ، رضا حمادة ، حنان مصطفى ، زهران حسونة ، سابا رمزى ، نور عبد الباقى ، سيد شعير ، شعراوى الفحام ، صفاء الكاتب ، طه عنان ، عدلى بركات ، عشماوى جلال ، عصام الحملاوى ، عيد منصور ، ومنذ أواخر الستينات ترددت على أديبنا الكبير فى لقائه الأسبوعى بأصدقاء العباسية فى مساء كل خميس ، فى مقهى عرابى القديم ، وهناك كان مع أصدقاء الصبا يبدو منطلقا ، على سجيته ، وقد تعرفت إلى معظم أصدقاء العباسية ، ثم توقف هذا اللقاء ، والسبب أزمة المواصلات التى عاقت أديبنا عن الانتقال من شارع النيل حيث يسكن إلى العباسية .. » .

شخصية غريبة ....

لم أنس الجمالية .

حنينى إليها ظل قويا ، دائما كنت أشعر بالرغبة فى العودة إلى الجمالية ، إلى أصدقائى هناك ، ما الذى يسر لى هذا وبانتظام ؟ كان لنا صديق من شلة العباسية توقف عن الدراسة وانتقل للعمل مع والده فى دكان منيفاتورة بالغورية ، كنا فى الأجازة ، فى العطلة المدرسية ، كانت أكثر من أربعة شهور ، كان يقول لنا : لابد أن تجيئونى يوميا ، كنا عندئذ نقطع الطريق سيرا على الأقدام ، بدءا من ميدان فاروق (ميدان الجيش حاليا) ثم شارع الحسينية ، ثم بوابة الفتوح ، فشارع المعز ، كان لابد أن نمشى حتى الغورية لأستمتع بالمنطقة ، وعندما نصل إليه نبقى معه حتى يغلق

الدكان ثم نمضى إلى مكانين كان يفضل الجلوس فيهما ، مقهى زقاق المدق ، ومقهى الفيشاوى . عرفت زقاق المدق بفضل صاحبنا هذا ، الحقيقة كان بينى وبين المنطقة والناس هناك ، والآثار ، علاقة غريبة ، تثير عواطف حميمة ، ومشاعر غامضة ، لم يكن ممكنا الراحة منها فيما بعد إلا بالكتابة عنها . أعود إلى صديقى هذا ، لقد كان شخصا مغامرا ، عمل مع والده ، وعندما جاءت أزمة الثلاثينات هجر أباه ، اختفى ، راح يلتقط رزقه من الصعيد ، كان جريئا جدا ، أطلق لحيته ، وقال إنه قادم من المدينة المنورة وباع التراب للناس على أنه تراب من قبر النبى ، وكان يعالج الناس ، وكانت له أحداث عديدة ، فى إحدى المرات أحدث نزيفا لرجل أثناء خلعه لضرسه ، وهرب من البلدة ، كان بائعا جيدا برغم ذلك ، ثم تزوج ، واستقر به الحال ، كان بورمجى تمام . الحقيقة أنه هو الذى عرفنا الطريق إلى أنحاء القاهرة ، أين الآن ؟ لا أدرى ، كان إذا جاء إلى القاهرة يجىء إلى ، يزورنى ، كان يفاجئنى فى وزارة الأوقاف ، ثم وزارة الثقافة ، ثم يختفى لا أدرى ، هل يعيش الآن أم أنه انتقل إلى رحمة الله ، لو أنه موجود فى القاهرة لزارنى بكل تأكيد ، كان مغامرا .. أذكر أنه بعد أن هجر والده إثر أزمة الثلاثينات ، ثم ضاق به الحال ، أراد أن يرجع إلى والده ، وسطنى ، ذهبت إلى والده ، كان جارا لنا فى نفس الشارع ، استقبلنى الرجل بحفاوة ، وعندما ذكرت أسم ابنه ، هب البيت كله فى وجهى ، حتى أمه ، لانه تخلى عن العائلة فى ظرف حرج ، صديقى هذا لم يكن يعرف مبادىء الوفاء والتعلق بالأسرة ، قل إنه بلا مبادىء ، قل إنه سابق لعصره ، المهم أنه كان مغامرا ، شخصيته وتجاربه ، فتحت لى عوالم عديدة كتبت عنها العديد من المرات ، وهى موزعة فى كثير من الروايات .. أما صديقى هذا ، فلا أدرى أين هو الآن ..

نقطة انطلاقى ....

من أصدقاء العباسية الذين انتقلوا إلى رحمة الله ، المرحوم فؤاد نويرة ، والمرحوم أحمد نويرة ، وهما من شلة العباسية ، وهما شقيقا الموسيقار عبد الحليم نويرة ، كانت صداقتى للكبير ، أحمد ، أما عبد الحليم نويرة فكان يتردد علينا من حين إلى آخر ، كان يصغر إخوته ، رحلا فى عمر مبكر ، رحمهما الله .. ، كانت كل سهراتنا فى منطقة الحسين ، كنت أتردد على المنطقة بافتتان لا حد له ، وتبلغ سهراتنا أجمل لياليها فى رمضان ، كنا نمضى إلى الحسين لنسمع الشيخ على محمود ، ونقضى الليل كله حتى الصباح ، كان ذلك أثناء دراستى ، ثم أثناء وظيفتى ، تعرف أننى لم إنقطع عن منطقة الحسين ، حتى أوائل السبعينات ، عندما كنت ألتقى بك هناك ، لكن تقدمى فى العمر ، وازدياد أزمة المواصلات ، تسببا فى عدم ترددى بانتظام ، أضف إلى ذلك أن المكان نفسه تغير ، الفيشاوى القديمة تهدمت ، كان السهر فى الفيشاوى حتى الصباح من أمتع ساعات حياتى ، وكانت الليالى تجمع شخصيات عديدة ، إن عدم ترددى على الجمالية يحزننى جدا ، أحيانا يشكو الانسان بعض جفاف فى النفس ، تعرف هذه اللحظات التى تمر بالمؤلفين ، عندما أمر فى الجمالية تنثال على الخيالات . أغلب رواياتى كانت تدور فى عقلى كخواطر حية أثناء جلوسى فى هذه المنطقة ، أثناء تدخينى النرجيلة ، يخيل لى أنه لابد من الارتباط بمكان معين ، أو شىء معين ، يكون نقطة انطلاق للمشاعر والأحاسيس ، خذ مثلا كتابنا الذين عاشوا فى الريف ، مثل محمد عبد الحليم عبد الله ، أو عبد الرحمن الشرقاوى ، ستجد أن الريف هو حجر الزاوية فى أعمالهم ومنبع أعمالهم ، نعم .. لابد للأديب من شىء ما ، يشع ويلهم ..

أول حب ....

.. عدت إلى الجمالية كموظف ، عندما عملت فى مكتبة الغورى ، وأشرفت على مشروع القرض الحسن ، كان ذلك فى أواخر الأربعينات وأوائل الخمسينات ، كنت أعمل فى مكتب الوزير ، وزير الأوقاف ، وحدث أن تغيرت الوزارة ، طلبوا منى أن أختار مكانا مختلفا لأعمل فيه ، اخترت مكتبة الغورى فى الأزهر ، دهشوا طبعا لأن هذا مكان لا يختاره موظف لبعده والاهمال الذى يحيط به ، لكننى كنت أرمى إلى هدف آخر ، لقد قضيت شهورا من أمتع فترات حياتى فى مكتبة الغورى ، فى هذه الفترة مثلا قرأت « مارسيل بروست » « البحث عن الزمن الضائع » ، وكنت أتردد بانتظام على مقهى الفيشاوى فى النهار ، حيث المقهى العريق شبه خال ، أدخن النرجيلة ، أفكر وأتأمل ، كنت أمشى فى الغورية أيضا ، لقد انعكست هذه المنطقة فى أعمالى ، حتى عندما انتقلت بعد ذلك إلى معالجة موضوعات ذات طبيعة فكرية ، أو رمزية ، عدت أيضا إلى عالم الحارة ، ان ما يحركنى حقيقة عالم الحارة ، هناك البعض يقع اختيارهم على مكان واقعى ، أو خيالى ، أو فترة ما من التاريخ ، لكن عالمى الأثير هو الحارة ، أصبحت الحارة خلفية لمعظم أعمالى ، حتى أعيش فى المنطقة التى أحبها ، لماذا تدور الحرافيش فى الحارة ؟ كان من الممكن أن تجرى الأحداث فى منطقة أخرى ، فى مكان آخر له طبيعة مغايرة ، إنما اختيار الحارة هنا لأنه عندما تكتب عملا روائيا طويلا ، فانك تحرص على اختيار البيئة التى تحبها ، التى ترتاح إليها ، حتى تصبح « القعدة حلوة » ، أما الخلاء الذى يظهر فى عالم الحارة ، فاستوحيته من العباسية ، أثناء سكنى فى العباسية كثيرا ما كنت أخرج إلى حدود الصحراء إلى منطقة عيون الماء حيث كان الاحتفال يقام عادة بالمولد النبوى ، هناك كنت أجد نفسى وحيدا ، خاصة أن هذا الخلاء

كان على حافته المقابر ، كان خلاء لا نهائيا ، فى العباسية عانيت أول حب حقيقى من نوعه ، من قبل كنت أحس بالجمال فى الجمالية بقدر الأحاسيس التى تراود صبيا فى الثامنة أو العاشرة ، لكن العباسية عرفت أول حب لى من نوعه .. كانت تجربة مجردة من العلاقات نظرا لفوارق السن ، والطبقة ، من هنا لم تعرف هذه العلاقة أى شكل من التواصل ، وربما لو حدث ذلك لتجردت العاطفة من كثير مما أضفيته عليها ، وسوف تبدو آثار هذه العلاقة فى تجربة كمال عبد الجواد فى الثلاثية وحبه لعايدة شداد ، عرفت العباسية مرحا ، وصحبة لا تعوض ، كنت ألعب الكرة مع الأصدقاء ، وكنت لاعبا جيدا ..

ملحوظة :

والكلام هنا للدكتور أدهم رجب ، الطبيب المشهور وأحد أصدقاء العباسية ، يقول :

كان نجيب محفوظ لاعب كرة من طراز نادر ، فى أيام صبانا فى العباسية كان محاورا ومداورا ، ومناورا كرويا لو استمر لنافس على الأرجح حسين حجازى والتتش . ومن بعدهما عبد الكريم صقر ، وأقول الحق وأنا أشهد للتاريخ اننى لم أر فى حياتى حتى الآن وأنا مدمن للكرة فأنا شاهد عدل . أقول لم أر لاعبا فى سرعة نجيب محفوظ فى الجرى . كان أشبه بالصاروخ المنطلق ، وكان هذا يلائم الكرة فى عصر صبانا .. ففى شبابنا الباكر كان عقل اللاعب فى قدميه ، وكان اللاعب القدير هو اللاعب الفرد الذى ينطلق بالكرة كالسهم نحو الهدف لا يلوى على شىء ..

المنبسط المنطوى ....

تسألنى عما إذا كنت انطوائيا ؟

ربما لانك رأيتنى فى مرحلة مختلفة من العمر ، ولكن الانطوائى نموذج مختلف تماما ، كان أحد أفراد شلتنا منطويا ، يجلس صامتا بمفرده ، وكنا نتحلق أو ندور حوله ، لنستثيره ، « ننكشه » لكنه لم يكن يستجيب لنا ، إنما يغادرنا إلى البيت ، هل أنا منطو ؟ أنا طول عمرى لم تخل فترة واحدة لى من أصدقاء ، فى العباسية كنت طوال النهار مع أصحابى ، لكن فى نواح أخرى تجدنى مثلا لا أتبادل الزيارات مع الأقارب ، إننى لا أندمج إلا مع الأصدقاء الذين أبقى معهم على سجيتى ، ونقعد كما أقعد معك الآن . فى مقهى ، فى الشارع ، فوق الأرض ، لكن إذا جئت تقول لى إن هناك اجتماعا ، أو عرسا ، أو .. لا أطيق ذلك ، اى قعدة تقيدنى لا أطيقها حتى الأفراح الخاصة بالأقارب ، لا أحضرها .. ، نعم .. نعم أنا أقوم بالواجب الاجتماعى ، لكن فى حدود ، الساعة الخامسة مثلا تجدنى معهم أثناء عقد القران ، ثم أنصرف ، لكن زيارة رسمية أو ما شابه ذلك ، لا ، أصدقائى لا يزورونني لسبب ، إننى معهم طوال اليوم ، مع الأصدقاء كنت أصبح على طبيعتى إننى لا أطيق التكلف ، لا أحتمله ، لا أحب إلا الجلسة التى أصبح فيها مع أصدقائى وكأننى بمفردى ، ولعلك تذكر جلساتنا فى مقهى عرابى مع الأصحاب القدامى .

ملحوظة أخيرة :

المتكلم هو الدكتور أدهم رجب ..

كان نجيب محفوظ ، ولا يزال وفيا ، ذلك النوع الأسطورى من الوفاء ، الذى لا تسمع عنه إلا فى القصص والروايات الخرافية ..

أصدقاؤه الأعزاء هم الذين عرفهم وعرفوه فى مطلع صباه فى العشرينات وأوائل الثلاثينات ..

وبعد ذلك فإن كل من صادفهم مجرد معارف ، وزملاء ، أعزّ أصدقائه كان مختار نويرة ، وفؤاد نويرة رحمهما الله . وعبد الحى الألفى وكيل الوزارة بالمالية . وكاتب هذه السطور ، وقريب آخر له مات . كان يكتب رواياته الأولى على الآلة الكاتبة ، وقد نسيت اسمه . لم يكن نجيب محفوظ وفيا للأشخاص فحسب ، بل للمعانى والعادات أيضا ، فهناك برنامج ليوم الخميس لا يعدل عنه مهما كانت الأسباب : عند الظهر يغادر مكتبه ليتغدى مع والدته ، ومع أشقائه وشقيقاته ، ومنهم ناظر مدرستى السابق الأستاذ إبراهيم عبد العزيز ، ويقدره نجيب محفوظ إلى حد التقديس . وإذ ينتهى غداء نجيب محفوظ وأشقائه مع والدتهم ظهر الخميس ، كان يذهب فى الساعة السادسة إلى قهوة عرابى ليقابل أصدقاءه القدامى جدا ، الشخصيين ، وفى الثامنة مساء يذهب إلى « الحرافيش » وهى شلة حديثة العهد ، أما شلة عرابى .. فهى شلة العمر كله !

بداية التكوين
والصراع بين الأدب والفلسفة

فى أحد الأيام رأيت أحد أصدقائى واسمه يحيى صقر يقرأ كتابا ، رواية بوليسية عنوانها « ابن جونسون » ويحيى هذا قريب لعبد الكريم صقر لاعب الكرة المشهور ، سألته :

ما هــذا ؟ ؟

قال انه كتاب ممتع جدا ..

استعرته منه ، قرأته واستمتعت به للغاية ، كان ذلك ونحن طلبة فى السنة الثالثة الابتدائية ، بحثت عن روايات أخرى من نفس السلسلة ، ثم

تساءلت ، أذا كان هذا ابن جونسون فأين جونسون نفسه ؟ بحثت ووجدت سلسلة أخرى من الروايات بطلها الأب ، كانت هذه أول روايات قرأتها فى حياتى ، كان عمرى حوالى عشر سنوات ، وكما قلت لك لم يكن هناك مناخ ثقافى فى العائلة والكتاب الأدبى الوحيد الذى رأيته مع أبى « حديث عيسى بن هشام » لأن مؤلفه المويلحى كان صديقا للوالد ، كنت أقرأ روايات جونسون على أنها حقائق ، ولهذا كنت أكاد أبكى ، أو أضحك تبعا لتغير المواقف ، من رواية الى رواية ، من بوليسية الى تاريخية ، سارت قراءاتى ، وبدأت التأليف وأنا طالب فى المرحلة الابتدائية . ولكنه تأليف من نوع غريب ، كنت أقرأ الرواية وأعيد كتابتها مرة أخرى ، بنفس الشخصيات مع تعديلات بسيطة ، ثم أكتب على غلاف الكشكول ، تأليف : نجيب محفوظ ، وأختار اسما لناشر وهمى ، أعدت كتابة روايات لسير ريدر هجارد ، لتشارلس جارفس ، كان التأليف دائما فى الأجازات ، هكذا بدأت كتابتى للرواية ، طبعا مع ملاحظة الاضافات التى أضيفها من حياتى ، من علاقاتى ، وخناقاتى مع الأصدقاء . وبدأت بعد ذلك التنقل فى القراءة ، حتى وصلت الى المنفلوطى ، ثم المجددين ، قرأت أيضا للمفكرين ، وكان المفكرون هم الذين يحظون بالاحترام فى هذه الفترة ، طه حسين ، العقاد ، وغيرهما ، أما الأدب فقد اعتبرته هواية جانبية ، كان الاحترام للفكر ، للمقالات ، للنقد ، للعرض وليس للقصة ، وهذا أثار تساؤلاتى الفلسفية ، كان العقاد يثير تساؤلات حول أصل الوجود ، علم الجمال ، من هنا جاء توجهى إلى الفلسفة ، كان الجانب المحترم فى الحياة الأدبية هو المقال ، أما القصة فغير محترمة ، ولهذا كنت لا أفكر فى التفرغ للأدب .. للقصة ، كما أننى كنت متفوقا فى الرياضة والعلوم .

سر الوجود ....

كان اتجاهى معروفا ، إما إلى الهندسة ، أو الطب ، لهذا عندما فكرت فى الفلسفة انزعج والدى انزعاجا شديدا ، كذلك انزعج المدرسون لاننى كنت ضعيفا فى المواد الأدبية ، أحد أساتذتى واسمه بشارة باغوص الله يرحمه ، سألنى مستنكرا ..

لماذا تؤذى نفسك .. ماذا تفعله بنفسك ؟

كان المدرسون يعرفون طلبتهم وقتئذ معرفة وثيقة ، لأن الفصل لم يكن يضم إلا خمسة عشر ، أو ستة عشر ، كان المدرسون يراهنون على الطلبة ، ويفخرون بالطالب الذى ينبغ . فى البدية لم أكن أفكر إلا فى الوظيفة من خلال الكرة ، بمعنى أن أحصل على وظيفة تمكننى من البقاء فى القاهرة لأواصل لعبة كرة القدم ، وبعد أن تركت الكرة بدأت أفكر فى أن أصير طبيبا أو مهندسا ، لأننى قوى فى الرياضة والعلوم . هذا هو السبب الوحيد ، لكننى بعد أن بدأت أقرأ المقالات الفلسفية للعقاد ولاسماعيل مظهر ، وغيرهما ، وبدأت قراءاتى تتعمق تحركت فى أعماقى الأسئلة الفلسفية ، وجدت أن هذه هى همومى ، وخيل لى أننى بدراستى للفلسفة سأجد الأجوبة الصحيحة ، الا يصبح الدارس للطب طبيبا ، والدارس للهندسة مهندسا ؟ إذن فدراستى للفلسفة سوف تجيب على الأسئلة التى تعذبنى . خيل لى أننى سأعرف سر الوجود ، ومصير الانسان .. يعنى بعد تخريجى سأخرج ومعى سر الوجود ، وكنت أدهش كيف يتجاهل الناس سر الوجود فى قسم الفلسفة ويدرسون الطب أو الهندسة ، بالطبع والدى صدم ، وعندما قوبل باصرارى ، قال لى : أدخل الحقوق مثل أبن عمك ، وأبن عمتك ، لتتخرج قاضيا ، أو مستشارا ، لكن أى مستشار .. أى قاض ؟ إننى أريد سر الوجود ؟ هل أنت منتبه الى سذاجة الفكرة ؟ كما تتعلم الطب ، ستتعلم سر الوجود ..

ملحوظة :

« نستعيد فيما يلى أحد فصول قصر الشوق من الثلاثية » :

— آن لك أن تخبرنى عن المدرسة التى تنوى الالتحاق بها .. ؟ كان السيد أحمد عبد الجواد متربعا على الكنبة بحجرة نومه ، على حين جلس كمال على طرفها المواجه للباب شابكا ذراعيه على حجرة يكتنفه الأدب والطاعة . و د السيد لو يجيبه الفتى قائلا : « الرأى رأيك يا أبى » ، بيد أنه كان مسلما بأن اختيار المدرسة ليس من الأمور التى يدعى لنفسه فيها حقا مطلقا ، وأن موافقة الابن عامل جوهرى فى الاختيار ، إلا أن مدى علمه بالموضوع كله كان محدودا جدا ، وقد استمد أكثره مما يثار أحيانا فى بعض مجالسه بين أصحابه الموظفين والمحامين الذى أجمعوا على الاقرار بحق الابن فى اختيار نوع دراسته تفاديا من الاخفاق والفشل ، لهذا كله لم يستنكف أن يجعل الامر شورى مسلما أمره إلى الله .

— نويت يا بابا بإذن الله ، وبعد موافقة حضرتك طبعا ! الالتحاق بمدرسة المعلمين العليا ..

ندت عن رأس السيد حركة موحية بالانزعاج ، واتسعت عيناه الزرقاوان الواسعتان ، وهو يحدج ابنه بغرابة ، ثم قال بنبرات ناطقة بالاستنكار :

— المعلمين العليا ! .. مدرسة المجانيه ! ، أليس كذلك ؟

فقال كمال بعد تردد :

— ربما ، لا أدرى شيئا عن هذا الموضوع ..

فلوح السيد بيده مستهزئا ، كأنما أراد أن يقول له : « ينبغى

أن تتجمل بالصبر قبل أن تقطع برأى فيما ليس لك به علم » ، ثم قال بازدراء :

— هى كما قلت لك ، ولذلك يندر أن تجذب أحدا من أولاد الناس الطيبين ، ثم إن مهنة المعلم .. أتدرى شيئا عن مهنة المعلم أم أن علمك بها لا يعدوبمدرستها ؟ ، هى مهنة تعيسه لا تحوزإحترام أحد من الناس ، إنى عليم بما يقال عن هذه الشئون أما أنت ففر صغير لا تدرى من أمور الدنيا شيئا ، هى مهنه يختلط فيها الأفندى بالمجاور ، خالية من كل معانى العظمة والجلال ، ولقد عرفت أناسا من الأعيان والموظفين المحترمين يأبون ـ الإباء كله ـ أن يزوجوا بناتهم من معلم مهما تكن مكانته .. ثم بعد أن تجشأ ونفخ طويلا :

— فؤاد بن جميل الحمزاوى ، وهو من كنت تخلع عليه البالى من بدلاتك سيلتحق بمدرسة الحقوق ، ولد ذكى متفوق ولكنه ليس أذكى منك ، وقد وعدت أباه بالمعاونة فى تسديد مصروفاته حتى تتحقق له المجانية ، فكيف أنفق على أولاد الناس فى المدارس المحترمة وابنى يتعلم بالمجان فى المدارس الحقيرة .. ؟ !

كان هذا التقرير الخطير عن « المعلم ورسالته » مفاجأة مزعجة لكمال . لم هذا التحامل كله ؟ . لا يمكن أن يرجع ذلك الى عمل المعلم الذى هو تلقين العلم ، فهل يرجع الى مجانية المدرسة التى تخرجه ؟ . لم يكن يتصور أن يكون للغنى أو الفقير دخل فى تقدير العلم أو أن يكون للعلم قيمة خارجة عن ذاته . كما يؤمن بذلك إيمانا عميقا لا يمكن أن يتزعزع ، كما يؤمن بكفالة الآراء السامية التى يطلع عليها من مؤلفات رجال يحبهم ويعتز بهم ، مثل : المنفلوطى ، والمويلحى وغيرهما ، كان يعيش بكل قلبه فى عالم « المثال » كما ينعكس على صفحات الكتب ، فلم يتردد فيما بينه وبين نفسه عن تخطئة رأى أبيه رغم جلاله ومكانته من نفسه ، معتذرا عن ذلك بجناية المجتمع المتأخر عليه ، وأثر « الجهلاء » من أصحابه فيه ، وهو ما أسف له كل

لأسف ، بيد أنه لم يسعه إلا أن يقول ملتزما غاية ما يستطيع من الأدب والرقة وكان فى الواقع يردد نصا من مطالعاته : العلم فوق الجاه والمال يابابا ..

ردد السيد رأسه بين كمال وبين صوان الملابس ، كأنما يشهد شخصا غير منظور على خرق الرأى الذى سمع ، ثم قال باستياء :

— حقا ؟؟ عشت حتى أسمع هذا الكلام الفارغ ، كأن ثمة فرقا بين الجاه والعلم ! لا علم حقيقيا بلا جاه ومال . ثم مالك تتكلم عن العلم كأنه علم واحد ! ألم أقل لك إنك غر صغير ؟ هنالك علوم لا علم واحد ، للصعاليك علومهم ، وللباشوات علومهم . افهم يا جاهل قبل أن تندم .

كان على يقين من احترام أبيه للدين ولأهله وبالتالى ، فقال بمكر :

— ان الأزهريين يتعلمون كذلك بالمجان ويشتغلون بالتدريس ، ولكن أحدا لا يستطيع أن يحتقر علومهم ..

فأومأ له بذقنه باحتقار ، وهو يقول :

— الدين شىء ، ورجال الدين شىء آخر !

فقال مستمدا من اليأس قوة يستعين بها على مناقشة الرجل الذى لم يتعود إلا طاعته :

— ولكنك يا بابا تحترم علماء الدين وتحبهم !

فقال السيد بلهجة لم تخل من حدة :

— لا تخلط بين الأمور ، أنا أحترم الشيخ متولى عبد الصمد وأحبه كذلك . ولكن أن أراك موظفا محترما أحب إلى من أن أراك مثله ، ولو سرت بالبركة بين الناس ودفعت عنهم السوء بالأحجبة والتعاويذ .. لكل زمان رجال ، ولكنك لا تريد أن تفهم !

تفحص الرجل الشاب ليسبر أثر كلامه فيه ، فغض كمال بصره ، وعض على شفته السفلى ، وجعل يرمش ، ويحرك زاوية فيه اليسرى فى عصبية . يا عجبا ! . ألهذا الحاضر يصر أناس

على ما فيه ضرر محقق لهم ؟ . وأوشك أن ينفجر غاضبا ، ولكنه تذكر أنه إنما يعالج أمرا خارجا عن نطاق سلطته المطلقة ، فكظم غيظه ، وسأله :

— ولكن ما الذى جعلك تتحمس لمدرسة المعلمين وحدها كأنها استأثرت بالعلم كله ؟ ! ، ما الذى لا يروقك فى مدرسة الحقوق مثلا ؟ أليست هى المدرسة التى تخرج الكبراء والوزراء ؟ ، أليست هى المدرسة التى تثقف بعلومها سعد باشا وأضرابه من الرجال .

ثم بصوت منخفض ، وقد عكست عيناه نظرة واجمة :

— وهى المدرسة التى وقع اختيار المرحوم فهمى عليها بعد روية وتفكير ، ولو لم يعالجه الأجل لكان اليوم من رجال النيابة أو القضاء . أليس كذلك ؟

قال كمال بتأثر :

— جميع قولك حق يا بابا ، ولكننى لا أحب دراسة القانون !

ضرب الرجل كفا بكف ، وهو يقول :

لايحب ! وما دخل الحب فى العلم والمدارس ؟ ! ، قل لى ماذا تحب فى مدرسة المعلمين ؟ ، أريد أن أعرف امارة الحسن التى فتنتك فيها ، أم أنت ممن يحبون الرمامة ؟ ، تكلم هأندا مصغ إليك .

ندت عنه حركة ، كأنه يستجمع قواه لايضاح ما غمض على أبيه من الرأى ، ولكنه كان مسلما بصعوبة مهمته ، ومقتنعا فى الوقت نفسه بأنها ستجر عليه مزيدا من السخريات التى ذاق أمثلة منها فيما سلف من النقاش . وفضلا عن هذا كله ، فلم يكن يستبين هدفا واضحا محددا حتى يستطيع بدوره أن يوضحه لأبيه . فما عسى أن يقول ؟ فى وسعه إذا تأمل قليلا أن يعرف ماذا يريد ، فليس القانون ببغيته ولا الاقتصاد ولا التاريخ ولا اللغة الانجليزية وإن كان يقدر أهمية المادتين الأخيرتين لما يتطلع اليه ، هذا ما لا يريد ، فما الذى يريد ؟ إن فى نفسه أشواقا تحتاج إلى عناية وتأمل حتى تتضح أهدافها ، ولعله غير متأكد من انه سيظفر بها فى مدرسة المعلمين ، وإن رجح عنده أن تكون ـ هذه المدرسة ـ اقصر سبيل اليها .. اشواق تهزها مطالعات شتى لا تكاد تجمعها صفة واحدة : مقالات أدبية ،

وأجتماعية ، ودين ، وملحمة عنتره ، وألف ليلة ، والحماسة ، والمنفلوطى ، ومبادىء الفلسفة ، الى أنها ربما لم تكن مقطوعة الصلة بالأحلام التى كاشفه بها ياسين قديما ، بل والأساطير التى سكبتها فى روحه أمه من قبل ذلك .. كان يحلو له أن يطلق على هذا العالم الغامض اسم « الفكر » ، وعلى نفسه أسم « المفكر » ، فيؤمن بين حياة الفكر أسمى غاية للانسان تتعالى بطبعها النورانى على المادة والجاه والألقاب وسائر ألوان العظمة الزائفة .. هى كذلك !! وضحت معالمها أم لم تتضح ، فاز بها فى مدرسة المعلمين أم لم تكن هذه المدرسة الا وسيلة اليها .. لا يملك عقله ان يتحول عن هذه الغاية ابدا ، ولكن من الحق كذلك ان يقرا بأن ثمة روابط قوية تربطها بقلبه أو بالحرى بحبه ! كيف كان ذلك ؟ ليس بين « معبودته » وبين القانون أو الاقتصاد من سبب ، ولكن ثمة أسباب وإن دقت وخفيت بينها وبين الدين والروح والخلق والفلسفة وما شاكل ذلك من المعارف التى يستهويه النهل من متابعها ، على نحو يشبه ما بينها وبين الغناء والموسيقى من أسرار يتشوف إليها فى هزة الطرب وأريحية النشوة . إنه يجد هذا كله فى نفسه ويؤمن به كل الايمان ، ولكن ما عسى ان يقول لأبيه ؟. لجأ مرة أخرى الى المكر ، وهو يقول : — ان مدرسة المعلمين تدرس علوما جليلة ، كتاريخ الانسان الحافل بالعظمات ، وكاللغة الانجليزية !

كان السيد يتفحصه وهو يتكلم ، وإذا بمشاعر الاستياء والحنق تزايله فجأة ، تأمل — وكأنه يراه لأول مرة — نحافته وضخامة رأسه وكبر أنفه وطول عنقه ، فوجد فى منظره غرابة تضاهي ما فى آرائه من شذوذ وأوشكت روحه الساخرة أن تضحك فى باطنه ، ولكن عطفه وحبه أبيا عليه ذلك ، غير أنه تساءل فيما بينه وبين نفسه : النحافة ظاهرة مؤقتة ، الأنف عندى مصدره ، ولكن من أين له هذا الرأس العجيب ؟ أليس من المحتمل أن يعرض له شخص — مثلى — ممن ينقبون عن العيون صيدا لمزاحهم ؟ ضايقته هذه الفكرة مضايقة ضاعفت من عطفه عليه ، فعندما جاء صوته أهدأ نبرة وأدنى الى الحلم والنصح ، قال :

— العلم فى ذاته لا شىء ، والعبرة بالنتيجة . القانون يفضى بك إلى وظيفة القضاء . أما التاريخ والعظات بمؤداها أن تكون معلما بائسا . عند هذه النتيجة قف طويلا وتأمل (ثم ونبرات صوته تعلو قليلا فى شىء من الحدة) لا حول ولا قوة إلا بالله . عظات وتاريخ وسخام ، هلا حدثتنى بكلام

معقول ؟ !

تورد وجه كمال حياء وألما وهو يستمع إلى رأى أبيه فى المعارف والقيم السامية التى يقدسها ، وكيف استنزلها الى مستوى السخام وقرنها به ، غير أنه لم يعدم عزاء فيما ورد بذهنه ـ فى لحظته تلك ـ من دفاع المفكرين الذين يقرأ لهم عن الفكر وقدسيته وتعريضهم بالجاهلين الذين يزدرونه ابتغاء منفعة أو جاه . أوه ! كأنهم يجادلون أشخاصا من طراز أبيه ! ولكن مهلا ، ليس أبوه من أولئك الحمقى ، إنه شيء عظيم جليل دون شك ، إلا أنه ضحية زمان ومكان ورفاق . ترى هل يجدي معه النقاش ؟ هل يجرب حظه مرة أخرى مستعينا بمكر جديد ؟

ـــ الواقع يا بابا أن هذه العلوم تحوز أكبر التقدير فى الأمم الراقية ؟ إن الأوروبيين يقدسونها ، ويقيمون التماثيل للنابغين فيها !

حول السيد وجهه عنه ، حاله يقول : « اللهم طولك يا روح » بيد أنه لم يكن غاضبا حقا . ولعله رأى الأمر كله مفاجأة مضحكة لم تخطر له ببال ، ثم أعاد إليه وجهه ، وهو يقول :

ـــ بصفتى والدك ! أريد أن أطمئن على مستقبلك ، أريد لك وظيفة محترمة . هل يختلف إثنان فى هذا ؟ ، الذى يهمنى حقا أن أراك موظفا مهابا لا مدرسا بائسا وإن أقاموا له تمثالا كابراهيم باشا أبى أصبع ! يا سبحان الله ، عشنا وسمعنا وشفنا العجب ! مالنا نحن وأوروبا ؟! أنت تعيش فى هذا البلد ، فهل هو يقيم التماثيل للمعلمين ؟ .. دلنى على تمثال واحد لمعلم ؟ ! (ثم بلهجة استنكارية) خبرنى يا بنى : أتريد وظيفة أم تمثالا ؟ !

ولما لم يجد إلا الصمت والارتباك ، قال فيما يشبه الحزن :

ـــ فى رأسك أفكار لا أدرى كيف اندست إليه ، إنى أدعوك إلى أن تكون واحدا من الرجال العظماء الذين يهزون الدنيا بجلالهم ومراكزهم ، فهل عندك مثال تتطلع إليه لا أدريه ؟ صارحنى بما فى نفسك حتى يرتاح بالى وأدرك غرضك . الحق إنى فى حيرة من أمرك ؟!

فليتقدم خطوة جديدة يفصح بها عن بعض ما فى نفسه وأمره لله . قال :

— هل من العيب يا بابا أن أتطلع إلى أن أكون كالمنفلوطى يوما ما ؟

قال السيد بدهشة :

— الشيخ مصطفى لطفى المنفلوطى ! ؟ . رحمة الله عليه رأيته أكثر من مرة فى سيدنا الحسين . لكنه لم يكن معلما فيما أعلم . كان أعظم من هذا بكثير . كان من جلساء سعد وكتابه . ثم إنه كان من الأزهر لا من المعلمين ، ولا شأن للأزهر نفسه بعظمته ، كان هبة من الله .. هكذا يقولون عنه !! نحن نبحث فى مستقبلك والمدرسة التى ينبغى أن تدخلها ولندع ما لله لله ، فإن كنت أنت هبة من الله أيضا . فستكون فى عظمة المنفلوطى وأنت وكيل نيابة أو قاض . لم لا ؟!

قال كمال . وهو يناضل فى استماتة :

— لست أتطلع إلى شخص المنفلوطى فحسب ، ولكن الى ثقافته أيضا ، ولا أجد مدرسة هى أقرب الى تحقيق غرضى ، أو فى الأقل تمهد السبيل إليه من مدرسة المعلمين . لذلك آثرتها . ليس بى من رغبة خاصة فى أن أكون معلما . بل لعلى لم أقبل هذا إلا لأنه السبيل المتاح الى ثقافة الفكر ..

— الفكر ؟ ! .. وردد مقطع أغنية الحامولى « الفكر تاه اسعفينى يا دموع العين ». الذى طالما أحبه واستعاده فيما مضى من زمانه . أهذا هو الفكر الذى يسعى وراءه ابنه ؟

سأله بدهشة :

— ما هى ثقافة الفكر ؟

لجت به الحيرة . فازدرد ريقه . وقال بصوت منخفض :

— لعلى لا أعرفها . (ثم يبتسم متوددا) لو كنت أعرفها لما كان بى حاجة الى طلب تعلمها !

— إذا كنت لا تعرفها فبأى حق اخترتها ؟ .. هه ؟.. هل تهيم بالضعة لوجه الله ؟

تغلب على ارتباكه بجهد شديد ، وقال مدفوعا باستماتته فى الدفاع عن سعادته .

— إنها أكبر من أن يحاط بها ، إنها تبحث عن أصل الحياة ومآلها ؟
تأمله مليا فى ذهول قبل أن يقول :

— أمن أجل هذا تريد أن تضحي بمستقبلك ؟ أصل الحياة ومآلها ؟! أصل الحياة آدم . ومصيرنا إلى الجنة أو النار . أوجد جديد فى ذلك ؟

— كلا . أعلم هذا . أريد أن أقول :

فعاجله قائلا :

— هل جننت ؟ أسألك عن مستقبلك ، فتجيبنى بأنك تريد أن تعرف أصل الحياة ومآلها ؟! .. وماذا تعمل بعد ذلك ؟ .. تفتح دكانا لاستطلاع الغيب ؟ !

خاف كمال إن هو استسلم للارتباك والصمت أن يغلب على أمره أو يضطر إلى التسليم بوجهه نظر أبيه . فقال مستنجدا شجاعته :

— أعذرنى يا بابا إذا لم أكن أحسنت التعبير عن رأيى . أريد أن أواصل دراستى الأدبية التى بدأتها بعد الكفاءة . أن أدرس التاريخ واللغات والأخلاق والشعر . أما المستقبل فأمره بيد الله !

فهتف السيد متهكما حانقا . وكأنما يتم سرد ما سكت كمال عنه :

— وأدرس أيضا فن الحواة . والقره جوز وفتح المندل ونبين زين نبين لم لا . اللهم غفرانك ، أكنت حقا تدخر لى المفاجأة ؟ .. لا حول ولا قوة إلا بالله !

أقتنع السيد أحمد بأن الحال أخطر مما قدر فحار فى أمره . وجعل يسائل نفسه : « أأخطأ فيما أباح لإبنه من حرية القول والرأى ؟ ، كلما مد له فى حبل الصبر والتسامح لج الآخر فى العناد وتمادى فى الجدل .. وما لبث أن قام فى نفسه صراع بين نزعته الأستبدادية وبين تسليمه بحق « أختيار المدرسة » حرصا على مستقبل كمال من ناحية ، وكراهية للإنهزام من ناحية أخرى ، ولكنه أنتهى على غير عادته ـ أو بالأحرى على غير عادته ـ فى الزمن القديم ـ بتغليب الحكمة ، فعاد إلى النقاش وهو يقول :

— لا تكن غرا ، ثمة شىء فى عقلك لا أدريه أسأل الله لك منه النجاة . ليس المستقبل لهوا ولعبا . ولكنه حياتك التى لن تكون لك حياة غيرها ، فكر

فى الأمر طويلا ، الحقوق خير مدرسة لك ، إنى أفهم الدنيا خيرا منك ولك أصدقاء من كافة الطبقات ولا خلاف بينهم فى ذلك ، أنت طفل أحمق ، ألا تدرى ما هى النيابة وما هى القضاء ؟ ، هذه وظائف تهز الأرض هزا وفى وسعك أن تتبوأ واحدة منها . كيف تعرض عنها بكل بساطة وتختار أن تكون .. معلما ؟ !

أشد ما يتألم .. لا غضبا لكرامة المعلم فحسب .. ولكن غضبا لكرامة العلم أولا وأخيرا ، العلم الحقيقى فى نظره ! .. لم يكن حسن الظن بالوظائف التى تهز الأرض هزا فطالما وجد الكتاب المسيطرين على روحه يطلقون عليها العظمة الزائفة والمجد الزائل وغير ذلك من نعوت الاستهانة والاستخفاف . فآمن ـ تبعا لأقوالهم ـ بألا عظمة حقيقية ألا فى حياة العلم والحقيقة ، وأقترنت من ثم كل مظاهر السلطان والجاه فى ذهنه بالزيف والتفاهة . غير أنه تحاشى الافصاح عن إيمانه هذا أن يستفحل غضب أبيه ، وقال برقة وتودد :

ـــ على أية حال مدرسة المعلمين مدرسة عليا ؟

تفكر السيد مليا ، ثم قال متبرما يائسا :

ـــ إذا لم تكن بك رغبة فى الحقوق ، وبعض الناس يعشقون التعاسة ، فاختر مدرسة محترمة : الحربية . البوليس وشىء خير من لا شىء !

فقال كمال منزعجا :

ـــ أدخل الحربية أو البوليس وقد نلت البكالوريا ؟

ـــ ما حيلتى إذا لم يكن لك فى الطب نصيب ؟ !

عند ذلك شعر بضوء آت من ناحية المرآة أقلق عينه اليسرى ، فمد بصره صوب الصوان ، فرأى أشعة شمس العصر المائلة المتسربة إلى الحجرة من النافذة المطلة على الفناء ، وقد زحفت من الجدار المواجه للفراش حتى غشيت جانب المرآة . مؤذنة باقتراب موعد إنصرافه إلى الدكان ، فتزحزح قليلا مبتعدا عن الضوء المنعكس ، ثم نفخ نفخة وشت بضيقه وأنذرت ـ أو بشرت ـ فى الوقت نفسه بوشك انتهاء الحديث ، وتساءل واجما :

— ألا توجد مدرسة أخرى غير هذه المدراس المغضوب عليها ؟
فقال كمال وهو يغض بصره حرجا لعجزه عن إرضاء أبيه :
— لم يبق إلا مدرسة التجارة ولا أرب لى فيها !
ومع أن مبادرته إلى الرفض أحنقته ، الا أنه لم يجد مع نفسه نحو المدرسة الجديدة الا الفتور ، لظنه أنها إنما تخرج « تجارا » ولم يكن يرضى لأبنه أن يكون تاجرا . لم يغب عن علمه من أول الأمر أن متجرا كمتجره ـ وإن هيأله حياة صالحة ـ فانه أعجز من أن يهيىء هذه الحياة لمن يخلفه فيه من أبنائه إذا روعى ما سيفرق من دخله على بقية المستحقين ، فلم يعمل على إعداد أحد منهم ليحل محله . على أن ذلك لم يكن السبب الجوهرى لفتوره ، كان فى الحق يكبر الوظيفة والموظفين ويدرك خطرهم ومنزلتهم فى الحياة العامة كما لمس ذلك بنفسه ، سواء فى أصدقائه من الموظفين أو فى بعض أتصالاته الحكومية المتعلقة بعمله . فأراد أبناءه أن يكونوا موظفين وأعدهم لذاك ، كذلك لم يكن يخفى عليه أن التجارة لا تحظى بربع ما تحظى به الوظيفة من التقدير فى نظر الناس وإن أخلفت أضعافها من المال ، وهو نفسه شارك الناس شعورهم وإن لم يعترف بذلك لسانه . بل كان يعتز بإكبار الموظفين له فيعد نفسه من الناحية « العقلية » موظفا أو ندا للموظفين ، ولكن من غيره يسعه أن يكون تاجرا وندا للموظفين معا ؟ ، ومن أين لأبنائه بشخصية مثل شخصيته ؟ ! .. آه يا لها من خيبة أمل ! ، كم تمنى قديما أن يرى ابنا من أبنائه طبيبا ، وكم ناط بفهمى أمنيته حتى قيل له أن البكالوريا الآداب لا تؤدى إلى مدرسة الطب فرضى بالحقوق وأستبشر بما بعدها خيرا . ثم علق أمله بكمال فاختار قسم الآداب فعاد الرجل يحلم بما بعد الحقوق ، ولكنه لم يتصور قط أن تنجلى المعركة بين آماله وبين الأقدار بوفاة « نابغة » الأسرة . وبإصرار كمال على أن يكون معلما ! ، أى خيبة أمل . ! وبدا السيد حزينا حقا وهو يقول :
— لقد أخلصت لك النصيحة وأنت حر فيما تختار لنفسك ، ولكن ينبغى أن تذكر دائما أننى لم أوافقك على رأيك ، فكر فى الأمر طويلا . لا تتعجل فما يزال أمامك فسحة من الوقت والا ندمت على سوء أختيارك مدى الحياة .

أعوذ بالله من الحمق والجهل والسخف ! !

وطرح الرجل رجله على الأرض آتيا حركة دلت على شروعه فى القيام ليأخذ أهبته لمغادرة البيت . فنهض كمال فى أدب وحياء . وانصرف .

عاد إلى الصالة فوجد أمه وياسين جالسين يتحدثان ، وكان موزع النفس كاسف البال لمعارضته لأبيه ولاصراره على معارضته رغم ما أبدى الرجل من حلم ولين ، ثم لما بدا عليه أخيرا من ضيق وحزن ، فقص على ياسين خلاصة ما دار فى الحجرة من نقاش ، وأنصت إليه الشاب وعلى جبهته علامة احتجاج وعلى شفتيه إبتسامة ساخرة ، وسرعان ما صارحه بأنه من رأى السيد وبأنه يعجب لجهله للقيم الجليلة فى هذه الحياة ، وتطلعه لأخرى وهمية أو سخيفة . تريد أن تجود بحياتك للعلم ؟ ما معنى هذا ؟ ! إنه سلوك رائع كما يبدو فى فصل من فصول المنفلوطى أو فى نظرة من نظراته . أما فى الحياة فما هو إلا عبث لا يقدم ولا يؤخر ، وأنت تعيش فى الحياة لا فى كتب المنفلوطى .. أليس كذلك ؟ الكتب تقرر أمورا غريبة وخارقة ، مثال ذلك ، أنك تقرأ فيها أحيانا « كاد المعلم أن يكون رسولا » ولكن هل صادفت مرة معلما يكاد أن يكون رسولا ؟ .. تعال معى إلى مدرسة النحاسين أو تذكر من تشاء من معلميك . ودلنى على واحد منهم يستحق أن يكون آدميا لا رسولا ! وما هذا ؟ أتضيع من يديك فرصة الحياة الرفيعة ، كم أتحسر أحيانا على معاكسة الظروف التى حالت بينى وبين مواصلة الدراسة ! .

تساءل عندما خلا إلى أمه على اثر ذهاب الأب وياسين ترى ما رأيها ؟ .. لم تكن ممن يؤخذ رأيهم فى مثل هذا الأمر ، بيد أنها تابعت أكثر حديثه مع ياسين ، إلا أنها كانت على علم برغبة السيد فى إلحاقه بمدرسة الحقوق ، الأمر الذى باتت تتطير منه فلم ترتح إليه . على أن كمال كان يعرف كيف يظفر بموافقتها من أقصر سبيل ، قال لها :

— ان العلم الذى أرغب فى دراسته وثيق الصلة بالدين .. ومن فروعه : الحكمة . والأخلاق ، وتأمل صفات الله وكنه آياته ومخلوقاته !

فتطلق وجه أمينة ، وقالت بحماس :

— هذا هو العلم حقا . علم أبى ، علم جدك ، أنه أجل العلوم !

وفكرت قليلا وهو ينظر إليها من طرف خفى باسما . ثم عادت تقول بنفس الحماس :

— منذا الذى يحتقر المعلم يا ابنى ؟ ألم يقولوا فى الأمثال « من علمنى حرفا صرت له عبدا » ؟

فقال مرددا حجة أبيه الذى هاجم بها اختياره . وكأنما يستوهبها رأيا يؤكد به موقفه :

— ولكنهم يقولون . أن المعلم لا حق له فى المناصب الرفيعة ! فلوحت بيدها باستهانة قائلة :

— المعلم موفور الرزق . أليس كذلك ؟ حسبك هذا ، أنى أسأل الله لك الصحة وطول العمر وصالح العلم ، كان جدك يقول : « أن العلم أعز من المال » !

أليس عجيبا أن يكون رأى أمه خيرا من رأى أبيه ؟ ولكنه ليس برأي ، إنه شعور سليم لم تفسده ممارسة الحياة الواقعة التى أفسدت رأى أبيه ، ولعل جهلها بشئون العالم هو الذى صان شعورها عن الفساد . ترى ما قيمة شعور ـ وإن سما ـ إذا كان مصدره الجهل ؟ وألا يكون لهذا الجهل نفسه أثره فى تكوين آرائه ؟ .. ثار على هذا المنطق . وقال يحاوره : إنه عرف الدنيا خيرها وشرها فى الكتب وآثر الخير عن إيمان وتفكير . وقد يلتقى الشعور الفطرى الساذج بالرأى الحكيم دون أن تغض سذاجة الفطرة من أصالة الحكمة .أجل ! إنه لا يشك لحظة فى صدق رأيه وجلاله ، ولكن هل يدرى ماذا يريد ؟ . ليست مهنة المعلم بالتى تجذبه . إنه يحلم أن يؤلف كتابا ، هذه هى الحقيقة . أى كتاب ؟ . لن يكون شعرا . إذا كانت كراسة أسراره تحوى شعرا ، فمرجع ذلك إلى أن عايدة تحيل النثر شعرا ، لا إلى شاعرية أصيلة فيه . فالكتاب سيكون نثرا ، وسيكون مجلدا ضخما فى حجم القرآن الكريم وشكله ، وستحدق بصفحاته هوامش الشرح والتفسير كذلك ، ولكن عم يكتب ؟ . ألم يحو القرآن كل شىء ؟ . لا ينبغى أن ييأس ، ليجدن موضوعه يوما ما ، حسبه الآن أنه عرف حجم الكتاب وشكله وهوامشه ،

أليس كتاب يهز الأرض خيرا من وظيفة وأن هزت الأرض ؟ ! كل المتعلمين يعرفون سقراط ، ولكن من منهم يعرف القضاة الذين حاكموه ؟ !

الأدب والفلسفة ....

... مشيت فى حياتى بدون مرشد ، وكان أفراد عائلتنا من أصحاب المهن ، طبيب ، مهندس ، قاض ، لم يكن أحدهم يهتم بالأدب ، من كان سيدلنى ، ولم يكن السؤال ممكنا ، إلى من أتجه ؟ إلى العقاد مثلا ؟ هنا يبدو جانب انطوائى ، لقد عشت أقرأ للعقاد ولم أره ، طه حسين لم ألتق به أبدا إلا عندما دعانا المرحوم يوسف السباعى لمقابلته فى نادى القصة . كنت أعتقد ان الأدب نشاط سرى ، نشاط أسلى نفسى به ، حتى استفحل الأمر كالداء ، وحتى بدأ الصراع بعد حصولى على الليسانس . الصراع بين الفلسفة والأدب ، وفى السنة الأخيرة لدراستى أدركت ميلى الحاد إلى الأدب ، أردت التخصص فى الأدب إلى جانب الفلسفة ، ولكن المرحوم عباس محمود أخبرنى أن هذا مستحيل لمخالفته النظم المعمول بها وقتئذ ، أثناء إعدادى لرسالة الماجستير وقعت فريسة لصراع حاد ، كل ليلة أتساءل ، فلسفة أو أدب ؟ كان صراعا حادا من الممكن أن تكون له عواقب خطيرة ، استمر ذلك حتى سنة ١٩٣٦ ، حسمت الحيرة المعذبة لمصلحة الأدب ، وهنا شعرت براحة عميقة ، راحة لا مثيل لها ، ولكن ظهرت أمامى صعوبة من نوع جديد ..

الأدب ....

كيف تشمل ثقافتى كل ما فاتنى ؟

الوقت محدود ، عملت موظفا ، وكان أمامى الكثير ، لهذا بعد تخرجى ، والتحاقى بالوظيفة استمررت أعمل فى البيت وكأننى لا أزال طالبا ، وهذا جعل والدى مهموما بى ، كان يقول لى : كأنك لم تتخرج ، أراك جالسا إلى

المكتب ليلا ونهارا ، أقول لك هل ستحصل على الدكتوراه ، تقول لى ، لا .. إذن لماذا ترهق نفسك ؟ ، كان هم والدى لأننى أعمل وقتا طويلا ، كان إحساسى أن الزمن محدود ، وفى نفس الوقت أريد أن أقرأ فى الأدب ، فى العلم ، فى التاريخ ، أريد أن أستمع إلى الموسيقى ، وفى نفس الوقت أكتب بجدية ، فى السنوات التى سبقت ذلك كنت أكتب المقال فى العديد من المجلات ، كنت أيضا أكتب القصص القصيرة ، ولكننى كنت أنشر فى مجلات مجهولة ، أقصد القصص ، يعنى أجد مجلة محدودة ، تعيش على الاعلانات ، أبادر بإرسال قصة لها ، ولذلك كان من أهم أيام حياتى ، يوم أن نشرت لى قصة فى مجلة « الرواية » ، ربما أقول إنه أهم من يوم حصولى على جائزة الدولة التقديرية ، كذلك يوم نشرت فى « المجلة الجديدة » لسلامة موسى ، لقد نشرت عددا كبيرا من القصص ، لا أذكر عدده ، كما أننى لا أذكر أول قصة نشرت لى ، ربما كان الدارسون المهتمون بالبيلوجرافيا أقدر منى على الحصر ، إن الذى اختار مجموعة « همس الجنون » هو المرحوم عبد الحميد جوده السحار ، لم أكن أريد أن أنشر هذه المجموعة ، كنت نشرت قبلها الروايات التاريخية الثلاث ، والقاهرة الجديدة ، وزقاق المدق ، وجاء ليقول لى ، لماذا لا تصدر مجموعة قصصية ؟ قلت له : « أى مجموعة الآن .. لقد فات أوانها » ، أنا لم أكتب القصة القصيرة بهدف كتابة القصة القصيرة .

أنا كتبت روايات ، ودرت بها على الناشرين الذين رفضوا نشرها ، ولأننى كنت أريد أن أنشرها فقد كتبت القصة القصيرة ، نعم هذا هو الدافع إلى كتابة القصة القصيرة ، وهنا لاحظ شيئا هاما ، وهو أننى أخذت موضوعات بعض هذه القصص من روايات ، بعض الناس قالوا إن قصصى القصيرة تحولت إلى روايات ، لكن العكس هو الصحيح ، السحار أصر على إصدار مجموعة قصصية ، أعطيته عددا هائلا من المجلات ، مجلات لا أذكر عناوينها ، ولكنه عندما لاحظ أننى مستاء ، قال : إذن نكتب تاريخ كتابة القصص الحقيقى ، متى طلب منك الزيات أن يصدر لك مجموعة قصصية ، قلت : عام ١٩٣٨ ، قال المرحوم السحار : إذن اعتبر هذه

المجموعة أول كتبك ، ستكتب عليها ١٩٣٨ ، ولهذا قد لا يدرى القارىء ان « همس الجنون » نشرت لأول مرة بعد ظهور زقاق المدق ، وليس فى عام ١٩٣٨ كما هو مكتوب فى قائمة مؤلفاتى التى تجدها فى كل كتاب . كنت أخشى أن يحدث نشرها صدمة كبيرة ، لكن السحار هو الذى أصر ، وهو الذى اختار ، وهو الذى طبع ، كان المرحوم السحار من شلة العباسية ، ولكنه حديث نسبيا ، وكان قد أنشأ لجنة النشر للجامعيين ونشرت لنا . غير أن أول كتاب نشر لى لم يكن له علاقة بالأدب ، كنت طالبا بالثانوى عندما شرعت فى ترجمة كتاب « مصر القديمة » لجيمس بيكى ، وذلك بهدف تقوية نفسى فى اللغة ، ثم أرسلته إلى المرحوم سلامة موسى لنشره كمقالات ، وفوجئت فى أحد الأيام بأحد الأشخاص يطرق الباب ويسلمنى نسخة من الكتاب مطبوعة ، كان سلامة موسى قد طبعه كهدية إلى القراء كبديل عن شهرين تتوقف فيهما مجلة « المجلة الجديدة » التى كان يصدرها ، لم أصحح الكتاب ، ويذكرنى ذلك بواقعة طريفة ، فعندما تقرر طبع « عبث الأقدار » طلب منى أصحابها ، كنت أقرأ وأشطب الكلمة وأكتب التصحيح بدلا من كتابته فى الهامش كما هو متبع . ولهذا عندما نظر عمال المطبعة إلى الهوامش وجدوها نظيفة ، فطبعت الرواية بأخطائها المطبعية .

عرفت فى هذه السنوات سلامة موسى ، لكننى لم أرتبط بعلاقة وثيقة به . كنت أرسل له مقالات لنشرها ، وطلبنى لمقابلته ، وعندما ذهبت إليه صدم . إذ وجدنى تلميذا بالجامعة ، لهذا أصبح نشر المقالات أقل وأصعب .

فيما تلا ذلك اللقاء يبدو أنه كان يظننى خريجا ، أو رجلا كبيرا ، لقد نشرت العديد من المقالات ، كان معظمها مجرد تعريف بموضوعات فلسفية ، أو تلخيص لبعض ما كنا ندرسه فى الجامعة ، ولهذا رفضت تماما أن أجمعها فى كتاب ، لقد ألح على صديقى الدكتور محمد يوسف نجم لإعادة نشرها فى كتاب ، بالطبع مثل هذا الكتاب سيوزع جيدا ، لكن القارىء لن يجد فيه جديدا ، خاصة ان كتابا كبارا ظهروا فى مجال الفلسفة فيما بعد ، وأضافوا إليه . لقد انتهت مرحلة كتابى للمقالة الفلسفية بعد

حسم الصراع بين الفلسفة والأدب بعد تخرجى فى الجامعة ، وهنا أود أن أحدثك بشكل أكثر تفصيلا عن المرحلة التى تلت ذلك ..

التكوين .. والكتابات الأولى ....

... بعد حسمى للصراع بين الفلسفة والأدب ، وجدت نفسى فى مواجهة مشكلة كبرى ، كان عمرى وقتئذ خمسا وعشرين سنة ، وعلى أن أضع نظاما لدراسة الأدب ، والاستمرار فى الاطلاع على الجوانب المختلفة للثقافة العامة ، ماذا أفعل ؟ هل أبدأمن الأدب الإغريقى وأستمر فى القراءة ؟ هل أتابع العصر الحديث ، وأعود من حين لآخر الى أدب العصور القديمة ، كان اطلاعى على الأدب الحديث له أولوية ، فبدأت منه ، كنت بلا مرشد ، طبعا وجدت صعوبة ، ولم يكن هناك حركة ترجمة واسعة ، لهذا قرأت الأعمال العالمية فى اللغة الانجليزية ، كان الحصول على أحدث المؤلفات الانجليزية فى هذا الوقت أسهل بكثير من وقتنا هذا الآن ، كنت تجد كافة ما تريده من كتب ، والكتاب غير المتوافر تطلبه فيصلك بعد أسبوع على الأكثر ، كنت أقوم بجولة أسبوعية على المكتبات فى وسط المدينة ، ومازلت أقوم بنفس الجولة صباح يوم الجمعة ، لكن الملاحظ ان الكتب المعروضة الآن فقيرة جدا فى تنوعها ، وحداثتها ، بالنسبة للمعروض فى الثلاثينات ، والأربعينات . أذكر خلال الحرب الثانية أن أحد أصحاب المكتبات عرض على أن يشترى منى ما جمعته من كتب بنفس الثمن الذى دفعته فيها ، لكننى رفضت ، ساعدنى فى منهجية القراءة كتاب فى تاريخ الأدب يستعرض تاريخه حتى سنة ١٩٣٠ ، وأذكر أن اسمه « درنك ووتر » ، ساعدنى هذا الكتاب فى اختيار قراءاتى الأدبية ، ولأننى بدأت متأخرا ، لم أدرس أى أديب دراسة متكاملة ، كان الكتاب يرشدنى إلى الأعمال المتميزة لكل كاتب ، قرأت « الحرب والسلام » لتولستوى ، و « الجريمة والعقاب » لدستويفسكى ، قرأت فى القصة القصيرة لتشيكوف ، وموباسان ، فى نفس الوقت قرأت لكافكا ، وبروست ، وجويس ، أحببت

شكسبير ، أحببت سخريته ، وفخامته ، ونشأت بيني وبينه صداقة حميمة وكأنه صديق ، كذلك أحببت يوجين يونيل ، وابسن ، وستردنبرج ، وعشقت « موبى ديك » لميلفيل ، أعجبنى « دوس باسوس » ، ولم يعجبنى همنجواى ، كنت فى دهشة من الضجة الكبيرة المحيطة به ، أحببت من أعماله « العجوز والبحر » ، وجدت فولكنر معقدا أكثر من اللازم ، وأعجبت بجوزيف كونراد ، وشولوخوف ، وحافظ الشيرازى ، وطاغور ، وهنا تلاحظ أننى لم أتأثر بكاتب واحد ، بل أسهم هؤلاء كلهم فى تكوينى الأدبى ، وعندما كتبت لم أكن أقع تحت تأثير أحدهم ، ولم تبهرنى الانجازات التكتيكية الحديثة ، تخيل لو أننى كنت تأثرت بجويس وحاولت أن أنهج نهجه فى تيار الوعى ، لقد قرأت يوليسيس فى أواسط الثلاثينات .. لكننى عندما بدأت الكتابة كنت أطرح هذا كله ، وأنهج منهجا واقعيا ..

الواقعية ....

... كنت أكتب طبقا للمنهج الواقعى ، فى نفس الوقت الذى كنت أقرأ أعنف الهجوم على الواقعية ، كان الأدب العالمى الحديث قد تعرض للواقع عبر مئات الأعمال ، ثم انكفأ إلى الداخل ، إلى تيارات الوعى ، واللا وعى ، وما وراء الواقع ، لكن بالنسبة لى وللواقع الذى أعبر عنه لم يكن قد عولج معالجة واقعية بعد حتى أقدم على استخدام الأساليب الأدبية الحديثة التى كنت أقرأ عنها وقتئذ ، كيف أغوص إلى واقع لم يوصف فى ظاهرة ، ولم ترصد علاقاته .. فى « خان الخليلى » ناس أحياء ، يعيشون ويتألمون ، ويترددون على المقاهى ، الغوص إلى الداخل يبدو منطقيا مع بطل جويس لأنه منطو ومغلق ، المهم أن يدرك الكاتب الأسلوب المناسب للتعبير عن موضوعه وعن نفسه ، كنت بلا مرشد ، وبلا دليل ، وكنت أكتب وفق منهج أقرأ السخرية منه ، أقرأ نعيه ، لكننى الآن أعتقد أن إدراكى كان سليما ، وكان مما يزيد الأمر صعوبة أننا نفتقد التراث الروائى فى الأدب العربى .

التراث ....

... كنت أقرأ الكتاب المصريين المعاصرين ، لكننى كنت أعرف أن القصة أو الرواية بالنسبة لهم على هامش حياتهم ، « عودة الروح » أعجبتنى كعمل أدبى ، ولكننى وجدت أنها أقرب إلى المسرح منها إلى الرواية ..

لا .. لم يكن هناك تراث روائى يمكن أن أرتكز عليه ..

كان أصحاب الروايات نفسها لا يعترفون بها ، الدكتور طه حسين يكتب رواية فى الصيف ، لكن من طه حسين ؟ إنه المفكر . العقاد يكتب سارة ، لكن من هو العقاد ؟ إنه المفكر ، بل إن العقاد كان يحتقر القصة والرواية . إذا كان هؤلاء بأنفسهم يحتقرون الرواية ، فكيف ستلتفت إليها من خلالهم .

كنت أعمل فى أرض شبه خالية ، وعلى أن أكتشف بنفسى وأمهد أيضا ..

من روافد قراءاتى الهامة ، التراث العربى ، وقد عرفته فى سن مبكرة ، عندما درست فى المرحلة الثانوية بعض عيون التراث العربى ، مثل الكامل للمبرد ، والأمالى لأبى على القالى ، وكان ذلك بفضل مدرسى اللغة العربية المعممين ، وظهر أثر ذلك فى موضوعات الإنشاء ، كان مدرس اللغة العربية اسمه الشيخ عبد الهادى ، يقرأ موضوعاتى فى الإنشاء ويشيد بالألفاظ العربية القديمة « .. شوفوا الأسلوب ، شوفوا الكلام اللى ما حدش يقدر يفهمه » .. وقرأت الشعر العربى القديم ، لكننى يجب أن أعترف أننى لم أقرأ التراث بانتظام ..

التـــاريخ ....

بعد أن حسمت الصراع بين الأدب والفلسفة ، كنت أفكر فيما يجب أن أكتبه ، وفى هذا الزمن كانت الوطنية متأججة ، والدعوة إلى إعادة الأمجاد الفرعونية ، كنت قرأت فى تاريخ مصر ، وكانت هناك كتب قيمة فى هذا الوقت ، قررت أن أكرس حياتى لكتابة تاريخ مصر بشكل روائى ، واستخرجت حوالى خمسة وثلاثين أو أربعين موضوعا ، حتى ان الشيخ مصطفى عبد الرازق قال لى « هذا يشبه ما فعله جرجى زيدان » . هذا ما كنت قد خططت له . لكن هذه الرغبة ، أو هذا الدافع مات بعد رواية « كفاح طيبة » ، ماتت الرغبة كما حدث فيما بعد إثر انتهائى من كتابة الثلاثية ، مات التاريخ ، ما الذى أحياه ، ما السبب فى موته ؟ لا أدرى ، استوحيت رواية « رادوبيس » ورواية « عبث الأقدار » من أسطورتين ، أما « كفاح طيبة » فكانت انعكاسا للظروف التى تمر بها مصر وقتئذ ، لهذا تجد الجوانب التاريخية عندى ضعيفة ، وعندما تقرر منحى جائزة عن رواية « رادوبيس » كلمنى فى التليفون أحمد أمين ، قال لى : أريد أن أسألك سؤالا ، لماذا وضعت عجلات حربية فى رادوبيس ؟ قلت : أعرف أن العجلات الحربية دخلت مع الهكسوس ، ولكننى أردت استخدام الخيال ، وأنا أعرف ما أقوم به ..

لقد كان هناك مد فرعونى ، وهو مد كانت له مبرراته الموضوعية ، إذ أن العصر الفرعونى هو المرحلة المضيئة الوحيدة فى مواجهة الواقع المر الذى كنا نعيشه ، كان كفاح طيبة ضد المحتل الانجليزى ، والحاكم التركى القابع فى السراى ، كنت أغلى ضد الانجليز ، وضد الأتراك ، كنت قد درست تاريخ مصر الفرعونية دراسة كاملة ، توشك أن تكون دراسة متخصص ، وعزمت على كتابة هذا التاريخ فى روايات ، كان من

الموضوعات التى اخترتها ، موضوعات عن الرعامسة والتحامسة ، وكان لدى موضوع مهم عن إخناتون ، كنت أواظب على حضور محاضرات قسم الآثار ، درست كل ما يتعلق بالعصر الفرعونى ، الحياة اليومية ، وسائل الحرب ، الدين ، كيف ألقيت بهذا المجهود الكبير بعد كفاح طيبة ، وأكتب « القاهرة الجديدة » ، ربما لأن التاريخ أصبح عاجزا عن أن يمكننى من قول ما أريده . ربما كنت أريد الدخول مباشرة فى معالجة الموضوعات الاجتماعية ، قد يكون هذا كله صحيحا ، لم أعد إلى التاريخ فيما بعد ، بل اننى اعتبرت الجهد الذى بذلته فى دراسة التاريخ جهدا ضائعا ، لأننى لم أرجع إليه فيما بعد ، لم أستفد منه ، وإن كان قد ترك أثرا فى تكوينى ، قد لا أعيه ، ولكنه حقيقى ، الآن تبدو عودتى إلى التاريخ صعبة ، لكن من يدرى ، قد أعود إلى التاريخ يوما ، فكثيرا ما يستعصى علينا حاضرنا ..

العلم ....

إننى شغوف بقراءة العلم .

قراءة هذه الكتب التى تلخص نظريات العلم وتبسطها للناس ، بل أقول إن قراءة العلم أهم عندى أحيانا من الأدب ، إن الأدب يمنح المتعة والشكل وخبرة بالحياة ، لكن بالنسبة للثقافة العامة تجدها فى الفلسفة والعلم ، ولاحظ أن القراءة فى العلم تختلف عن الايمان بالعلم ، إننى أؤمن بالعلم ، ويرجع الفضل فى ذلك الى المفكرين والكتاب الذين بشروا بالعلم ، ومنهم سلامه موسى الذى نبهنا الى دور العلم فى الحضارة الحديثة . ولو أن النظرة الآن الى العلم تختلف عن النظرة اليه فى القرن التاسع عشر ، لا شك أنه نزل عن كبريائه إذا صح القول ، مع أن انجازاته تعاظمت .

★ ★ ★

ملحوظة :

نستعيد هنا الفصل رقم (٣٣) من قصر الشوق :

قبل الخروج الى صلاة الجمعة بساعة ، دعا أحمد عبد الجواد كمال الى حجرته . لم يكن يدعو أحدا من أهل بيته الى مقابلته إلا لأمر هام ، والحق أنه كان مبلل الفكر . متحفزا لاستجواب ابنه عما يشغله . وكان بعض أصحابه قد وجهوا نظره مساء أمس الى مقال ظهر فى البلاغ الأسبوعى بقلم الأديب الناشىء « كمال أحمد عبد الجواد » . ومع أن أحدا منهم لم يقرأ من المقال إلا العنوان وهو « أصل الانسان » والامضاء وهو الأديب الناشىء « كمال أحمد عبد الجواد » فانهم اتخذوا منه مادة للتعليق والتهنئة وممازحة السيد ، حتى فكر الرجل جادا فى أن يكلف الشيخ متولى عبد الصمد بعمل حجاب للشاب . قال له محمد عفت « سجل اسم ابنك مع أسماء كبار الكتاب فى مجلة واحدة ، طب نفسا وادع الله أن يكتب له مستقبلا باهرا كما كتب لهم » . وقال له على عبد الرحيم « سمعت من شخص محترم أن المرحوم المنفلوطى ابتاع عزبة بقلمه فأبشر خيرا » ، وحدثه آخرون عن القلم وكيف شق السبيل لكثيرين الى حظوة الحكام والزعماء ، ضاربين الأمثال بشوقى وحافظ والمنفلوطى ، وعندما جاء دور ابراهيم الفار داعبه قائلا « سبحان الذى خلق من ظهر الجاهل عالما » ، أما السيد فقد ألقى نظرة على العنوان ونظرة على « الأديب الناشىء » ، ثم وضع المجلة فوق جبته التى كان قد نزعها بسبب حرارة يونيه وحميا الويسكى مؤجلا قراءتها حتى ينفرد بنفسه فى البيت أو فى الدكان ، ثم واصل سهرته بصدر منشرح وضمير تياه فخور ، بل جعل يراجع نفسه لأول مرة فى سخطه المكظوم فى إيثار الشاب لمدرسة المعلمين قائلا : إن « الولد » فيما يبدو سيكون « شيئا » رغم اختياره غير الموفق ، وبنى أحلاما على ما قيل عن « القلم » وحظوة الكبراء وعزبة المنفلوطى ، أجل من يدرى ؟ . لعله لا يكون معلما فحسب ولكن

يشق السبيل حقا إلى حياة لم تخطر له هو على بال ، وعند ضحى اليوم . وبعد فراغه من الصلاة والافطار ، تربع على الكنبة وفتح المجلة باهتام وراح يقرأ بصوت مرتفع ليمتلىء بمعانيها ، لكن ماذا وجد فيها ؟ إنه يقرأ المقالات السياسية فيفهمها دون عناء ، أما هذه المقالة فإنها دارت برأسه وأفزعت قلبه وأعاد تلاوتها بعناية فطالع كلاما عن عالم يدعى « داروين » ومجهوده فى جزر نائية ومقارنات ثقيلة بين شتى الحيوانات حتى وقف مبهوتا عند تقرير غريب يزعم أن الإنسان سلالة حيوانية ! بل إنه متطور عن نوع من القردة ! وكرر تلاوة الفقرة الخطيرة منزعجا . ثم لبث ذاهلا أمام هذه الحقيقة الأسيفة وهى أن ابنا من صلبه يقرر ـ دون إعتراض أو مناقشة ـ أن الأنسان سلالة حيوانية ! انزعج الرجل إنزعاجا شديدا وتساءل فى حيرة : هل حقا يعلمون الأولاد هذه المعلومات الخطيرة فى مدارس الحكومة ، ثم أرسل فى طلب كمال .

وجاء كمال وهو أبعد ما يكون عما يعتلج فى رأس أبيه . وكان قد أستدعاه قبل ذلك بأيام ليهنئه على النقل إلى السنة الثالثة ، فظن بالدعوة الجديدة خيرا وبدا شاحب الوجه ضامر الجسم كعهده فى الفترة الأخيرة فى حال عللتها الأسرة بالجهد الشديد الذى بذله قبيل الامتحان ، ولكن غاب عنها سرها الحقيقى وهو ما عناه طيلة الأشهر الخمسة الماضية من ألم وعذاب أسيرا لعاطفة مستبدة جهنمية كادت تودى به . وأشار السيد إليه . بالجلوس ، فجلس على طرف الكنبة متجها نحو أبيه بأدب ، وعند ذاك لمح أمه جالسة أمام الصوان مشغولة بترتيب الثياب وخيطها ، أما الرجل فقد رمى بالبلاغ الأسبوعى إلى الفراغ الذى يفصل بينهما على الكنبة وقال بهدوء مصطنع :

ــ لك مقال فى هذه المجلة ، أليس كذلك ؟

خطف غلاف المجلة عينى كمال ، فرنا إليه بعين ذاهلة دلت على أنه لم يكن يتوقع هذه المفاجأة قط .. من أين لأبيه هذا

الإطلاع المستجد على المجلات الأدبية ؟ ! لقد سبق أن نشر فى الصباح « تأملات » بين النثر والشعر المنثور ضمنها نظرات فلسفية بريئة وأنات عاطفية ، وهو آمن كل الأمن من ناحية إطلاع أبيه عليها ، فلم يدر بها أحد من أسرته إلا ياسين الذى كان هو نفسه يقرأها عليه فينصت الآخر ، ثم يقول له معلقا « هذه ثمرة توجيهى الأول لك ، أنا الذى علمتك الشعر والقصص ، جميل يا أستاذ ، ولكن هذه فلسفة عميقة جدا فمن أين جئت بها ! » ، أو يقول مداعبا « من الحسناء التى ألهمت هذه الشكوى الرقيقة ؟ ، ستعلم يا أستاذ يوما أنهن لا يجدى معهن إلا ضرب المراكيب » . ولكن ها هو ذا يطلع على أخطر ما كتب ، تلك المقالة التى شب التفكير فيها ، معركة جهنمية فى صدره وعقله كاد يحترق فى أتونها ، فكيف حدث هذا ؟ ، وهل يجد له من تفسير إلا عند أصدقاء أبيه الوفديين الذين يحرصون على اقتناء كافة الجرائد والمجلات الوفدية ؟ ، وهل يطمع فى أن يخرج سالما من هذا المأزق ؟ رفع عينيه عن المجلة ، ثم قال بلهجة لم يمكنها من الافصاح عن اضطرابه :

— بلى ، خطر لى أن أكتب موضوعا تثبيتا لمعلوماتى وتشجيعا لنفسى على مواصلة الدرس .

قال السيد أحمد بهدوئه المصطنع :

— لا عيب فى ذلك ، الكتابة فى الصحف كانت ولم تزل الوسيلة الى الجاه والحظوة عند الكبراء ، ولكن المهم الموضوع الذى يكتب فيه الكاتب ، ماذا أردت بهذه المقالة ؟ ، أقرأها وأشرحها لى ، فقد غمض على مرماك ..

يا للتعاسة ! ليس هذا المقال للجهر ، وخاصة على مسمع من أبيه !

— انه مقال طويل يا بابا ، ألم تقرأه حضرتك ؟ ، إنى أشرح فيه نظرية علمية ..

حدجه الرجل بنظرة براقة متحفزة ، أهذا يدعونه بالعلم

الآن ! . ألا لعنة الله على العلم والعلماء ..

— ماذا تقول فى هذه النظرية ؟ ، لقد لفت نظرى عبارات غريبة تقول إن الانسان سلالة حيوانية ، أو أى شىء من هذا القبيل ، أحق هذا ؟

بالأمس ناضل نفسه وعقيدته وربه نضالا عنيفا أعيا روحه وجسده ، واليوم عليه أن يناضل أباه ، غير أنه كان فى الجولة الأولى معذبا محموما .. أما فى هذه الجولة فهو خائف مرتعب ، ان الله قد يؤجل عقابه ، أمَّا أبوه فشيمته التعجيل بالعقاب .

— هذا ما تقرره هذه النظرية !

علا صوت السيد وهو يتساءل فى انزعاج :

— وآدم أبو البشر الذى خلقه الله من طين ونفخ فيه من روحه ، ماذا تقول عنه هذه النظرية العلمية ؟ !

طالما طرح هذا السؤال على نفسه ، لم يكن دون أبيه انزعاجا ، ولم يغمض له جفن ليلتها حتى الصباح ، وتقلب فى الفراش متسائلا عن آدم والخالق والقرآن ، وقال لنفسه مرة وعشرا : القرآن إما أن يكون حقا كله أو لا يكون قرآنا ، انك تحمل على لأنك لم تدر بعذابى ، لو لم أكن قد اعتدت العذاب وألفته لأدركنى الموت تلك الليلة . قال بصوت خافت :

— دارون صاحب هذه النظرية لم يتكلم عن « سيدنا » آدم ..

وهتف الرجل غاضبا :

— لقد كفر دارون ووقع فى حبائل الشيطان ، إذا كان أصل الانسان قردا أو أى حيوان آخر ، ألم يكن آدم أبا للبشر ؟ . هذا هو الكفر عينه ، هذا هو الاجتراء الوقح على مقام الله وجلاله ! ! إنى أعرف أقباطا ويهودا فى الصاغة وكلهم يؤمنون بآدم ، كل الأديان تؤمن بآدم ، فمن أى ملة دارون هذا ؟ ! ، إنه كافر وكلامه كفر ونقل كلامه استهتار ، خبرنى أهو من أساتذتك فى المدرسة ؟

ما أدعى هذا الى الضحك لو كان فى القلب فراغ للضحك ،

لكنه قلب أفعمته الآلام ، ألم الحب الخائب ، وألم الشك ، وألم العقيدة المحتضرة ، إن الموقف الرهيب بين الدين والعلم أحرقك ، ولكن كيف يمكن لعاقل أن يتنكر للعلم ؟ . قال بصوت متواضع :

— داروين عالم انجليزى مات منذ زمن بعيد ..

وهنا ندّ عن الأم صوت يقول بتهدج :

— لعنة الله على الانجليز أجمعين ..

فالتفتا نحوها التفاتة قصيرة . فوجداها قد تركت الثياب والابرة وتابعت الحديث ، ولكن سرعان ما انصرفا عنها وعاد الأب يقول :

— خبرنى ، هل تدرسون هذه النظرية فى المدرسة ؟

التقف حبل النجاة الذى تدلى اليه فجأة ، فقال لائذا بكذب :

— نعـــم ..

— أمر غريب ! ، وهل تدرس هذه النظرية فيما بعد لتلاميذك ؟ !

— كلا ، سأكون مدرس آداب لا علاقة لها بالنظريات العلمية ..

ضرب السيد كفا بكف . ود فى تلك اللحظة لو كان له على العلم بعض ما له على الأسرة من سلطان . وهتف محنقا :

— إذن لماذا يدرسونها لكم ؟ ! ، هل الغاية إدخال الكفر فى قلوبكم ؟

فقال كمال بلهجة المحتج :

— معاذ الله أن يؤثر فى عقيدتنا مؤتمر ..

فتفحصه بالارتياب وهو يقول :

— ولكنك نشرت الكفر بمقالك !

فقال بارتياب :

— أستغفر الله ، إنى أشرح النظرية ليلم بها القارىء

لا ليؤمن بها ، هيهات أن يؤثر فى قلب المؤمن رأى كافر ..

— ألم تجد موضوعا غير هذه النظرية المجرمة لتكتب فيه ؟

لماذا كتب مقالته ؟ . لقد تردد طويلا قبل أن يرسلها إلى المجلة ، ولكنه كان كأنما يود أن ينعى إلى الناس عقيدته . لقد ثبتت عقيدته طوال العامين الماضيين أمام عواصف الشك التى أرسلها المعرى والخيام ، حتى هوت عليها قبضة العلم الحديدية فكانت القاضية . على أننى لست كافرا ، مازلت أؤمن بالله ، أما الدين .. ؟ أين الدين ؟ . ذهب ! ، كما ذهب رأس الحسين ، وكما ذهبت عايدة ، وكما ذهبت ثقتى بنفسى ! . ثم قال بصوت حزين :

— لعلى أخطأت ، عذرى أننى كنت أدرس هذه النظرية ..

— ليس هذا بعذر ، وعليك أن تصلح خطأك ..

ياله من رجل طيب ، إنه يطمع فى أن يحمله على مهاجمة العلم فى سبيل الدفاع عن أسطورة . حقا لقد تعذب كثيرا ولكنه لن يقبل أن يفتح قلبه من جديد للأساطير والخرافات التى طهره منها ، كفى عذابا وخداعا ، لن تعبث به الأوهام بعد اليوم ، النور النور ، أبونا آدم ! ، لا أب لى ، ليكن أبى قردا إن شاءت الحقيقة ، إنه خير من آدميين لا عدد لهم ، لو كنت من سلالة نبى حقا ما سخرت منى سخريتها القاتلة ..

— وكيف أصلح الخطأ ؟

فقال السيد ببساطة وحدة معا :

— عندك حقيقة لا شك فيها ، وهى أن الله خلق آدم من تراب ، وأن آدم هو أبو البشر ، هكذا مذكور فى القرآن ، فما عليك إلا أن تبين أوجه الخطأ وهو عليك هين ، وإلا فما فائدة ثقافتك ؟

وهنا جاء صوت الأم قائلا :

— ما أيسر أن تبين خطأ من يعارض قول الرحمن ، قل لهذا الانجليزى الكافر : ان الله يقول فى كتابه العزيز : إن آدم هو

أبو البشر ، كان جدك من حملة كتاب الله .. فعليك أن تنهج سبيله ، لقد سرنى أنك تبغى أن تكون مثله من العلماء ..

لاح الضيق فى وجه السيد ، فانتهرها قائلا :

— ماذا تفهمين أنت من كتاب الله أو من العلم ؟ ، دعينا من جده وانتبهى إلى ما بين يديك ..

فقالت فى حياء :

— أريد يا سيدى أن يكون كجده من العلماء الذين يضيئون الدنيا بنور الله .. فصاح الرجل ساخطا :

— ها هو ذا قد بدأ ينشر الظلام ..

فقالت المرأة باشفاق :

— معاذ الله يا سيدى ، لعلك لم تفهمه ..

حدجها السيد بنظرة قاسية . لقد خفف من شدته فى معاملتهم فماذا كانت النتيجة ؟ . ها هو ذا كمال يذيع أن أصل الانسان قرد ، وها هى ذى أمه تناقشه وتقول له لم تفهم ! صاح بها :

— دعينى أتكلم ، لا تقاطعينى ، لا تتدخلى فيما لا تفهمين ، انتبهى إلى عملك ، الله يقطعك ..

ثم ملتفتا إلى كمال بوجه متجهم :

— خبرنى ، هل أنت فاعل ما قلت لك ؟

عليك رقيب فى البيت لم يبتل الاحرار بمثله فى الدول ، لكنك كما تخافه تحبه ، فلن يطاوعك قلبك على الاساءة إليه ، تجرع الألم فقد اخترت حياة النضال ..

— كيف يمكن أن أرد على هذه النظرية ؟ ، لو انحصرت مناقشتى فى الاستشهاد بالقرآن لما جاءت بجديد ، فالكل يعلم بما عندى ويؤمن به ، أما مناقشتها علميا فشأن المختصين من العلماء ..

— ولماذا تكتب فيما لا شأن لك به ..

اعتراض وجيه فى ذاته ، غير أنه من المؤسف انه لا يجد الشجاعة للاعتراف لأبيه بأنه آمن بالنظرية بصفتها حقيقة

علمية ، وانها بهذه الصفة يمكن الاعتماد عليها فى إنشاء فلسفة عامة للوجود خارج نطاق العلم . أما السيد فقد ظن صمته إقرارا بالخطأ فتضاعف أسفه وحنقه . إن الضلال فى هذا الميدان شديد الخطورة سيىء العاقبة ، وهو ميدان لا سلطان له عليه ، وربما وجد فيه نفسه مكتوف اليدين أمام الشاب الضال ، كما وجد نفسه من قبل أمام ياسين بعد انفلاته من وصايته ، فهل يجرى عليه ما جرى على الآباء الآخرين فى هذه الأيام الغريبة ؟ ! . ان أنباء كالأساطير تترامى إليه عن شباب « اليوم » ، منهم تلاميذ قد اعتادوا التدخين ، وآخرون يعبثون بكرامات المدرسين ، وغير هؤلاء وأولئك قد تمردوا على آبائهم . أجل لم تهن هيبته ، ولكن عم أسفر ذلك التاريخ الطويل من الحزم والصرامة ؟ ، ها هو ذا ياسين يتدهور ويضمحل ، وها هو ذا كمال يناقش ويجادل ويحاول التملص من قبضته ..

— أصغ إلى بكل وعيك ، لا أريد أن أقسو عليك ، فانك مؤدب ومطيع ، أما عن موضوعنا فلا أملك لك إلا النصيحة ، وينبغى أن تذكر أنه ما من أحد قد خالف نصيحتى وسلم ..

ثم بعد صمت قصير :

— إليك ياسين شاهدا عما أقول ، وقد نصحت قديما « المرحوم » بألا يلقى بنفسه إلى التهلكة ، ولو امتد به العمر لكان اليوم رجلا نابها ..

وهنا قالت الأم بصوت كالأنين :

— قتلوه الانجليز ، إنهم إما يقتلون وإما يكفرون !

وواصل السيد حديثه قائلا :

— إذا وجدت فى دروسك ما يخالف الدين ، واضطررت إلى حفظه كى تنجح فى الامتحان ، فلا تؤمن به ، ومن باب أولى لا تنشره فى الصحف وإلا حملت وزره ، ليكن موقفك من علم الانجليز كموقفنا من احتلالهم ، وهو عدم الاقرار بشرعيته ولو فرض علينا بالقوة الجبرية ..

تدخل الصوت الرقيق الحيى مرة أخرى قائلا :

— ولتكرس حياتك بعد ذلك لفضح أكاذيب هذا العلم ونشر نور الله ..

فصاح بها السيد :

— قلت ما فيه الكفاية دون حاجة إلى آرائك !

فعادت إلى ما بين يديها ، وجعل السيد يحدق فيها متوعدا حتى اطمأن إلى صمتها ، فالتفت إلى كمال متسائلا :

— مفهوم ؟

قال كمال بلهجة موحية بالثقة :

— بكل تأكيد ..

إذا أراد أن يكتب بعد اليوم فعليه بالسياسة الأسبوعية حيث لا تمتد يد أبيه الوفدى ، أما عن أمه فقد وعدها فى سره بأن يكرس حياته لنشر نور الله ، أليس هو نور الحقيقة ؟ ، بلى ، وسيكون فى تحرره من الدين أقرب إلى الله مما كان فى إيمانه به ، فما الدين الحقيقى إلا العلم ، هو مفتاح أسرار الكون وجلاله ، ولو بعث الأنبياء اليوم ما اختاروا سوى العلم رسالة لهم ، هكذا يستيقظ من حلم الأساطير ليواجه الحقيقة المجردة ، مخلفا وراءه تلك العاصفة ـ التى صارع فيها الجهل حتى صرعه ـ حدا فاصلا بين ماض خرافى وغد نورانى ، بذلك تتفتح له السبل المؤدية إلى الله ، سبل العلم والخير والجمال ، وبذلك يودع الماضى بأحلامه الخادعة وآماله الكاذبة وآلامه البالغة ..

عادات القراءة ....

إننى أقرأ فى العلم إلى جانب الأدب والفن ، لهذا تجدنى أقرأ أكثر من كتاب فى وقت واحد ، لدى نهم حاد إلى القراءة لم يحد منه إلا مرض السكر الذى حد من نشاطى فى العام الأخير ، عندما اضطررت نتيجة لأوامر الأطباء إلى العمل ساعة والراحة ساعة ، ولأننى بدأت دراسة الأدب فى سن متأخرة ، لهذا لم أعاود قراءة عمل أدبى مرتين ، كانت الرقعة واسعة جدا ، ونهمى إلى الجديد لا يسمح بقراءة عمل مرتين . وإلا .. كان فيه أعمال عزيزة جدا على نفسى كان يجب أن أقرأها مرتين ، مثل « الحرب والسلام » لتولستوى ، و « البحث عن الزمن الضائع » ، ولو أنه بتقدم العمر فترت الرغبة فى الاطلاع على الأدب ، اليوم إذا كان أمامى كتاب فكرى يبحث عن الحضارة أو العلم يصبح أكثر جاذبية لى من رواية أو مسرحية ، ربما لأن النصف الثانى من القرن العشرين لم يشهد شوامخ أدبية تناطح القمم الأدبية . بخلاف زمان ، يعنى عندما تقرأ مثلا الجبل السحرى لتوماس مان ، تجد متعة فنية وفكرية ، لا يوجد مستوى كهذا الآن ، فى هذه السنة قرأت رواية « مائة سنة من العزلة » لجارسيا ماركيز ، لولا أنك أعرتها لى وزكيتها لى لما كنت قرأتها ، يعنى لو وجدتها فى مكتبة مدبولى ربما كنت لن أشتريها ، إن الجديد القادم من أوربا لا يشجع ، ولاحظ ان ماركيز من كولمبيا — أمريكا اللاتينية . إننى أتابع إنتاج الشبان بدقة ، هذا صحيح ، ولكن هذا أمر مختلف ، هنا إحساس بالواجب والرغبة فى معرفة تطور أدبنا . لهذا تجدنى أقرأ ما يصلنى لأعرف كيف يكتب الشبان ، أعرف أن هناك رؤية جديدة . تطور جديد ، ما يصلنى من أدب عربى معاصر أقرأه أيضا ، فى الماضى كان الإبداع العربى خارج مصر محدودا جدا وكان فى أغلبه أدب فكرى ، قرأت معظم ما أتيح لى الاطلاع عليه ، تصور أن ذلك كان

أسهل فى الثلاثينات ، كنت تجد فى المكتبة التجارية كتبا لمؤلفين عراقيين ، أوسوريين ، أو مغاربة ، الآن .. لا ، ليس لدينا سوق مشتركة للكتب وهذا مؤسف ، معظم اطلاعى على أدب البلاد العربية كان بواسطة أصدقاء ، كان يجىء صديق مسافر ويعطينى كتابا ، أو مؤلف يرسل لى كتابه ، لكن السوق شحيح ..

العقلانية ....

... لا شك ان قراءتى للفلسفة كان لها تأثير كبير فيما بعد ، أشعر هذا بشكل شخصى ، بعض النقاد يقولون ان الرؤية الفكرية واضحة فى أعمالى ، فيها عقلانية ، طبعا تعرف أن الأدب الأوربى فى القرن العشرين غلب عليه الطابع الفكرى ، لم نصل نحن إلى ذلك فى تقديرى حتى الآن ، إنما لا يخلو أدبنا من فكر ، ولكن لا يقارن بأدب سارتر ، أو كامى ، كان الأدب فى القرن التاسع عشر يعكس الواقع بشكل فنى ، الحياة بكل دوافعها ، عواطفها وانفعالاتها ، كذلك المتعة فى القص ، والحكاية ، تغير ذلك فى القرن العشرين ، هناك روايات تبدو وكأنها كتب فكرية ، غلب الطابع الفكرى على الخلق ..

العبث ....

لا .. بالتأكيد ، أنا لست عبثيا .. هل تعرف ماذا يعنى العبث ؟ .

إنه يعنى باختصار ، أن الحياة لا معنى لها ، والحياة بالنسبة لى لها معنى وهدف .. إن تجربتى الأدبية كلها مقاومة للعبث ، ربما أشعر بدبيب عبث ، لكننى أقاومه ، أعقلنه ، أحاول تفسيره ، ثم إخضاعه ، بعض أبطال الحرافيش يبدون وكأن حياتهم ضاعت عبثا ، لكن فى إطار العائلة الكبيرة لم تكن عبثا ..

لا يا عزيزى جمال .. أنا لست عبثيا ، إن أكمل شكل للعبث تجده عند

بيكيت ، تلك هي النظرة العبثية الحقيقية ، إنها فقدان الإيمان بأى شىء ، ليس الإيمان بالدين فقط ، ولكن أى إيمان من أى نوع ، أحيانا يزحف الشعور بالعبث خاصة فى لحظات اليأس والضيق ، الحياة من حولنا تبدو قاسية ، حياتنا الشخصية فى واقعنا المحلى ، تبدو أحيانا عبثية ، بالضبط .. عبث اجتماعى كما تقول ، لا معقول واقعى ، لا يضيع العبث إلا الانتصار من نوع معين يرد الثقة إلى النفس ، إننا نعيش حتى الآن إحباطات داخلية مستمرة منذ أن وعينا ، مجرد أن نتنفس نجد من يجثم على أنفاسنا ليكتمها ويفسد حياتنا . وهذا فظيع ، لذلك لن تجد نغمة الانتصار الأولى التى كانت فى جيل ثورة ١٩١٩ ، نفس هذا الجيل وصلت إليه الاحباطات ، لكنه تذوق الانتصار ، بدأنا نعى وهذا الجيل يتحطم ، نعم .. يتحطم ، أنا بدأت أقرأ الصحف فى سنة ١٩٢٦ ، كان عمرى أربع عشرة سنة ، كانت الثورة قد هدأت ، وبدأت التنازلات ، ثم الاحباطات ، ثم القمع ، واستمر ذلك ، أتيح لنا التنفس بعد ١٩٥٢ ، ولكن سرعان ما انتكس الوضع ، وهكذا ، على أية حال أعترف لك بأننى سقطت فى العبث لدقائق بعد هزيمة يونيو ، صحيح أن المقاومة بدأت ، لكن كان الواقع يبدو عبثيا ، فظيعا ..

اللغة ....

لم يكن نهمى إلى القراءة فقط ، ولكننى كنت أحب اقتناء الكتب أيضا ، فيما عدا كتب التاريخ النادرة التى كانت فى دار الكتب ، أو مكتبة الجامعة التى كانت أغنى من دار الكتب . قرأت معظم الأعمال العالمية فى اللغة الانجليزية ، وقرأت بالفرنسية أيضا ، ولكن بالانجليزية أكثر ، لم يكن ممكنا بالنسبة لى قراءة بروست فى الفرنسية ، قرأته بالانجليزية ، لكننى قرأت أناتول فرانس فى الفرنسية ، أصعب شىء قراءة عمل أدبى فى لغته الأصلية ، لأن الأسلوب الأدبى منمق ، وأحيانا يكون صعبا ، قراءة كتاب علمى أسهل ، لأن الأسلوب واضح ..

المكتبة ....

.. مكتبتى الآن موزعة إلى قسمين ..

البيت القديم فى العباسية ، حيث يقيم ابن شقيقى المهندس محمود الكردى ، وبيتى فى شارع النيل ، السبب ضيق المكان ، بعد زواجى نقلت إلى البيت الكتب الأساسية ، ولأن المكان ضيق ، والشراء مستمر ، أصبحت أمتلك خزانة كتب وليست مكتبة ، تصور أننى عندما أريد الرجوع إلى كتاب معين فى مكتبتى لا أبحث عنه ، الأسهل بالنسبة لى أن أشتريه من جديد ، أصبح البحث صعبا لتكدس الكتب ، لدى عدد هائل من الروايات ، والكتب العلمية ، وفى مختلف المجالات ، ومجموعة نادرة من كتب الفن ، منها مثلا مؤلفات هربرت ريد ، فى كل كتاب خمسون أو ستون لوحة ، لا تقدر بثمن الآن ..

نعم .. نعم ، كنت من الذين اشتروا نسخة من دائرة المعارف البريطانية عندما استوردتها دار المعارف لأول مرة ، اقتنيتها لأنها مرجع فى أى مجال قد أحتاج إليه ، وأحيانا ، بعد تعذر وصول الكتب الأجنبية الجديدة أقرأ فى دائرة المعارف . خاصة عندما أفتقد شي كنت فى حالة قراءة مستمرة ، ثلاث ساعات يوميا ، أقرأ بعد أن أكتب لأننى لو فعلت العكس لما استطعت النوم ..

كان نهمى إلى القراءة كبيرا ..

لكن جاء الحد من ساعات القراءة فى العام الماضى كخبطة موجعة لى ..

إننى حقا حزين ، لكننى .. أحمد الله على أية حال ، فمازلت قادرا على القراءة وان كان الوقت أقل ..

الخروج من الظل .. إلى دائرة الضوء ..

... عدد كبير من القصص فى أوائل الثلاثينات ، معظمه لم تضمه مجموعة ، كما أننى نسيت تماما المجلات التى كنت أرسل إليها قصصى ، فى هذا الزمن كان عدد المجلات الجادة فى مصر أكثر من مجلات التسلية ، بل إن الأخيرة كانت نادرة ، كان عدد المجلات الجادة كبيرا ، تقدم التراث العالمى فى الأدب ، والتراث الحديث ، لم تكن هناك أى مشكلة فى تتبع مصادر الثقافة ، أما المجلات العامة ، مثل المصور ، آخر ساعة ، اللطائف المصورة ، فمحدودة العدد والانتشار ، ولم تتوسع هذه المجلات إلا بعد الحرب العظمى ، كان عدد المتعلمين فى مصر محدودا ، لكن من يقرأ يشكلون نسبة عالية ، لو استمرت هذه النسبة مع ازدياد عدد المتعلمين ، لو ظلت كما هى ، لأصبح لك مثلا مائتى ألف قارىء ، نعم .. مائتى ألف قارىء ، لك أنت بالذات ، كان لكل جريدة صفحة أدبية يومية ، ولكل جريدة عدد أسبوعى مستقل ، مثل البلاغ الأسبوعى ، والسياسة الأسبوعية ، بخلاف المجلة الجديدة والمقتطف ، والحديث ..

أول جنيه ! ....

لم تربطنى أى علاقة بأصحاب المجلات التى نشرت لى ، كنت أرسل قصصى أو مقالاتى بالبريد ، الوحيد الذى استدعانى سلامة موسى ، كانت الكتابة بلا مقابل ، ويبدو انه عندما لاحظ أننى كتبت عنده لفترة طويلة أراد أن يكافئنى معنويا ، ربما كان ذلك هو الدافع لاستدعائى ..

استمررت أنشر بلا مقابل ، أول قصة تقاضيت عنها أجرا تقاضيته بعد أزمة تسببت فيها ، كنت أنشر فى « الرواية » و « الرسالة » مجانا ، المرحوم صلاح ذهنى طلب منى قصة لمجلة « الثقافة » ، أعطيته قصة

ونشرت بالفعل ، آخر السنة اتصل بى تليفونيا ، قال لى : يا أخى انت سببت لنا مشكلة ، قلت : خيرا .. لماذا ؟ قال : لك جنيه مكافأة لم تصرفه ، دهشت ، سألته : ولكن .. لماذا تعطوننى هذا الجنيه ؟ ، قال : انه مكافأة عن قصة ، تزايدت دهشتى ، سألت : « هى القصص بفلوس ؟ » ..

عرفت أنهم أثناء مناقشة الميزانية العمومية فى نهاية السنة وجدوا هذا الجنيه الذى حال دون تقفيل الميزانية ..

الكتــاب الشعبى ....

فى سنة ١٩٤٣ ، بدأنا النشر فى لجنة النشر للجامعيين التى أسسها المرحوم عبد الحميد جودة السحار ، وشقيقه سعيد السحار أطال الله فى عمره ، كان الكتاب يطبع منه ألفا نسخة فقط ، حتى أصدرت روز اليوسف سلسلة الكتاب الذهبى ، طبعة شعبية ، طلبونى ، ذهبت إلى سعيد السحار أخبره ، لأننى كنت أخلاقيا ملتزما بطباعة كتبى عنده ، وافق بشىء من الضيق ، قال : انظر إلى كتبكم ، طبعنا من كل كتاب ألفى نسخة فقط ، بعض الكتب مضى عليها عشر سنوات ، ولكن مازال متبقيا منها فى المخزن ما بين أربعمائة أو خمسمائة نسخة ، فما بالك بكتاب سيطبع منه خمسة عشر ألفا ، بالطبع لن تصدر طبعة ثانية منه أبدا .. المهم أننا اتفقنا ، وسلمت روز اليوسف رواية « خان الخليلى » ، وفوجئت بوضع جديد ،لأول مرة يعلن عن كتاب لى ، إعلانات متوالية ، صورة كاريكاتورية للمؤلف وهو يقدم كتابه ، شكل جديد من النشر ، وإذا بالخمسة عشر ألف نسخة تنفذ فى أسبوع ، ليس ذلك فقط ، ولكن المخزون من الكتب فى مخزن سعيد السحار ينفد ، ثم يعاد طبع الروايات ، وتباع ، طبعة ثانية ، ثالثة ، رابعة ، الكتاب الشعبى لم يقتل الطبعات الأخرى بل أحياها ، كيف تفسر ذلك ؟ لا أدرى . كان تفسيرى أن عدد القراء كبير ، وأن الطبعة الشعبية وصلت إليهم ، وصلت إلى قراء كنا نجهل الطريق إليهم . كانت لجنة النشر للجامعيين تعلن بشكل محدود جدا ، مجرد إعلان صغير ، لكن

روز اليوسف قامت بحملة إعلانية كبيرة ، وهذا وضع مستمر حتى الآن ، فرق كبير أن تطبع كتابا فى دار نشر ، وأن تطبعه فى سلسلة شعبية ، إذا كان السحار له الفضل فى طباعة كتبى ، فإننى مدين بالانتشار إلى الكتاب الذهبى ..

انهيار ....
بسبب الثلاثية ....

سببت لى الثلاثية صدمة حادة ، عانيت منها كثيرا ..

بعد أن كتبت عبث الأقدار ، وبداية ونهاية ، وخان الخليلى ، والسراب ، ورواياتى الأولى ، وبعد أن انتهيت من الثلاثية ، ذهبت بها إلى سعيد السحار ، كانت الثلاثية رواية واحدة عنوانها « بين القصرين » ، أما التقسيم إلى ثلاثة أجزاء فله قصة أخرى سأرويها بعد قليل ، نظر سعيد السحار إلى الرواية ، وتساءل ، ما هذا ، قلت : رواية جديدة .. « بين القصرين » ، أمسك بالرواية ، قلب صفحاتها الألف ، قال .. كيف أطبع هذه ؟ ان ذلك مستحيل ..

عدت إلى البيت وأنا فى منتهى الحزن . شوف .. كان فى مكتبى أحيانا ثلاث روايات لم تنشر ، ولكننى لم أضقْ بذلك قط . ولكن فى هذه الليلة حدث لى انهيار .. أبعد هذه السنوات من العمل ، أبعد هذا الجهد الشاق لا أستطيع نشر أكبر وأعز عمل ؟ . مررت بأيام يأس ، وفى احدى المرات . كنت فى نادى القصة ، وتحدثت عن روايتى الضخمة ، التى فشلت فى نشرها ، وإذا بالمرحوم يوسف السباعى يطلبها منى ، قال : نحن سنصدر مجلة ، لا أذكر متى دار هذا الحديث بالضبط ، قبل الثورة أم بعدها ؟ لقد انتهيت من الثلاثية فى أبريل ١٩٥٢ . يوسف السباعى أخذ منى « بين القصرين » كلها ، وكانت نسخة مخطوطة ، أى لم يكن لدى صورة منها ، لم أكن قد نسختها على الآلة الكاتبة . نعم .. كان من الممكن أن تضيع ، لو أن هذه النسخة الوحيدة فقدت من المرحوم السباعى لأى سبب لضاعت

الثلاثية إلى الأبد ، بعد الثورة وتغير الظروف ، اتصل بى ، قال : سنصدر مجلة ، وسننشر الرواية . ثم صدرت « الرسالة الجديدة » وبدأنشر بين القصرين . من الذى شعر بنجاح المسلسلة ؟ سعيد السحار ، قال لى ان الرواية ناجحة ، ولكن صدورها فى كتاب واحد مستحيل لأنها ضخمة جدا ، اقترح تقسيمها إلى ثلاثة أجزاء بدلا من ثلاث فترات ، سألته : والاسم ؟ ، قال : سمها ثلاثة أسماء . ومن هنا جاء عنوانا « قصر الشوق » و « السكرية » ، وأصبحت بين القصرين ثلاثية ..

أذكر الفترة التى تلت رفض السحار لنشرها بأسى ، كانت صدمة فظيعة ، بل إهانة ، خاصة عندما قال لى لحظة رؤيته لها « إيه الداهية دى ؟؟ » ..

صدرت الثلاثية ، وانتشرت بسرعة ، كان أول كتاب يروج لى خارج السلسة الشعبية ، « بين القصرين » ، ثم توالت الطبعات ، والرواج ، حتى بدأ تزوير الكتب فى بيروت سنة ١٩٦٥ ، منذ ١٩٦٥ حتى سنة ١٩٧٠ ، ضعفت حركة التوزيع ضعفا كبيرا ، ماتت الكتب ، بينما أصدقاء سعيد السحار فى الخارج يرسلون إليه النماذج المزورة ، ولم يكن هذا بالنسبة لى فقط ، إنما لعديدين ، التزوير استمر حتى الآن ، لكن ربما كان له ما يبرره الآن ، أقصد المقاطعة بسبب الظروف السياسية ولكن فى عز ألمى بسبب التزوير كنت أجد عزاء من نوع آخر ، إذ أوصلنا الكتاب المزور إلى مناطق لم نصلها ، مثل شمال أفريقيا ، والسبب ، اننا لم نكن نجيد عملية التوزيع .. كان انتشارا أدبيا ، وليس ماديا ، لقد طبع من أعمالى أكثر من مليون نسخة ، لم أتقاض حقوقى إلا عن مائة وخمسين ألفا أو مائتين ، الطريف ان المزورين كانوا يحتفظون باسم « مكتبة مصر وسعيد السحار » على الأغلفة ، نفس الأغلفة ولكنها باهتة قليلا ..

كنت فيما مضى أتخيل نفسى فى السن التى أستحق فيها معاشا كاملا ، وأخطط لاحالة نفسى حتى أتفرغ للأدب تماما بعيدا عن الوظيفة ، ولكننى عندما وصلت إلى هذه المرحلة من العمر اكتشفت أننى فى حاجة إلى مرتبى كاملا ، أعباء الحياة تتزايد باستمرار ، تصور ان المرتب الوحيد الذى كان

يكفينى فى حياتى منذ بداية الشهر وحتى نهايته ، بل وأدخر منه ، كان مرتبى الذى تقاضيته عندما التحقت بوزارة الأوقاف فى الثلاثينيات ، كان صافى ما أقبضه ثمانى جنيهات ، وكانت سنوات الأزمة الاقتصادية التى أفلس فيها التجار ، ولم ينج من ضنكها إلا أصحاب الدخول الثابتة ، أقصد الموظفين . لم أفكر قط فى الأدب كمصدر دائم للرزق ، ان ذلك مستحيل عمليا ، لكن هناك فترة كان من الممكن أن أكتفى فيها بدخلى من الأدب ، وهى السنوات القليلة التى توالت فيها الطبعات وانتهى ذلك فى سنة ١٩٦٥ ، عندما بدأ تزوير الكتب فى الخارج ..

الآن مستورة والحمد لله ..

الروايات الكبرى .. الثلاثية ....

... فى الحقيقة ان فكرة الثلاثية جاءتنى على دفعات ، أستطيع تحديد اللحظات الأولى ، كنت أقرأ فى كتاب عن أجرومية الرواية ، فى الواقع أنا قرأت العديد من الكتب عن فن الرواية ، أول ما تعرض له هذا الكتاب .. الرواية التى يسمونها رواية الأجيال ، أو رواية الأزمان التى تعرض أجيالا عديدة متوالية ، أعجبنى الشكل ، هنا كنت أقرأ عن نوع محدد من الرواية ، هنا بدأت محاولة التذكر ، عما إذا كنت قد قرأت عملا أدبيا من هذا النوع ؟ .. لا .. لم أكن قد قرأت ، بالمناسبة .. هناك أشياء تقرأها ولا تستجيب لها ، وهناك قراءات أخرى تتجاوب معها ، ما تردد داخلى بقوة ، ضرورة أن أكتب رواية من هذا النوع ، ولكننى ترددت ، مثل هذه الرواية فى حاجة إلى تمرين طويل ، وتفرغ كامل ، يعنى إذا كان لدى مشروع رواية أفرغ منه أولا ، مثل زقاق المدق ، السراب ، وفى هذه الأثناء أصدر طه حسين رواية « شجرة البؤس » ، وجدتها قريبة جدا من هذا النوع ، أقصد رواية الأجيال ، ولكنها قصيرة إلى حد ما ، فى هذه الفترة أخطأت خطأ كبيرا ، لم أكرره فيما بعد أبدا فى حياتى ، فى هذه الفترة تحدثت كثيرا عن هذا النوع من الروايات ، وأفضت فى شرح أفكارى ،

ونيتى فى كتابتها يوما ما ، أحد الأدباء الذين استمعوا إلىّ ذهب وشرع فى كتابة رواية من هذا النوع ، أى رواية أجيال ، وأصدرها بعد ستة أشهر ، منذ هذه التجربة تعلمت ألا أحكى أى شىء ، أى تفاصيل عن مشروعاتى ، بالطبع لك أن تتخيل قيمة الرواية من الناحية الفنية إذا كانت قد كتبت وصدرت فى ستة أشهر فقط ..

المهم .. أعود إلى طه حسين ، كانت شجرة البؤس رواية أجيال ولكنها صغيرة ، سيطرت الفكرة علىّ تماما ، وهنا بدأت أقرأ الروايات الكبرى التى تعرض للأجيال ، قرأت « ملحمة أسرة فورسايت » لجولز ورثى ، و « الحرب والسلام » لتولستوى ، و « آل بودنبروك » لتوماس مان .

فى لحظة معينة شعرت أننى وصلت إلى نقطة معينة امتلكت فيها زمام الموضوع ، هنا نقطة لابد من توضيحها وهى أننى لم أعتد قراءة أعمال معينة قبل أن أكتب إحدى رواياتى ، ولكن هذه القراءات كانت جزءا من ثقافتى ، واطلاعى ، إن أعمالى تنتمى إلى المدرسة الواقعية ، وهناك روايات لا حصر لها تمت إلى هذه المدرسة ، لكن العمل الأدبى الوحيد الذى كتبته ولم أقرأ له شبيها ، ولم أستطع تصنيفه فى مدرسة معينة ، هو .. « حكاية حارتنا » ..

شخصيات بين الواقع .. والخلق ....

... فى السنوات التى سبقت الثلاثية كانت التفاصيل تتراكم من هنا وهناك ، من جلسة ، من حوار ، من سهرة ، إن تسعين فى المائة من شخصيات الثلاثية لها أصول واقعية ، بعضها من عائلتنا ، بعضها من جيران ، بعضها من أقارب ، بالطبع الشخصية الواقعية تنسى ، لأن الخلق يحيلها إلى شىء آخر ، الأصل فى الواقع ينسى ، ولا يعرف تاريخيا إلا طبقا لتسجيلك أنت ، الأصل لا يهم ، وجدت أنها تجربة لا دخل فيها بشخصيتى ، إن الثلاثية هى العمل الوحيد الذى يحتوى جزءا كبيرا من عقلى وقلبى ، بعض الناس يقولون لى : أليس فى شخصية أحمد عاكف

شيء منك ؟ ، وهذا غير صحيح على الاطلاق ، أحمد عاكف شخصية حقيقية ، كان موظفا فى الجامعة ، بالتحديد فى ادارة الجامعة ، قرأ الرواية بعد صدورها ولم يعرف نفسه ، لم يعرف قط أننى استوحيت بطل الرواية منه هو ، وهذا يدلك على شيء غريب أيضا ، رأى الانسان فى نفسه ، ورأى الآخرين فيه ، ما أبعدهما عن بعض ، كان أحمد أفندى عاكف الذى عرفته مجرد موظف صغير بإدارة الجامعة ، كان يظن أنه يعرف كل شيء فى مصر ، كان لديه البكالوريا فقط ويظن أنه جمع علوم الدنيا كلها ، كان أرعن وسطحيا ، والمخاطرة التى تحملتها انه لو عرف أننى استوحيته فى « خان الخليلى » ربما هدد ذلك حياتى ، ربما يعتدى علىّ ، إذ أنه لم يكن طبيعيا بالمرة ، وبالمناسبة ، تعرضت حياتى للخطر مرة أخرى بسبب إحدى الشخصيات التى استوحيتها من الواقع ، أقصد بطل « السراب » ، إنه شخصية حقيقية ، كان حاصلا على ليسانس الحقوق ، إسمه حسين بدر الدين ، لم يكن يقرأ أى روايات أو أى نوع من الأدب ، أحد أصحابنا من شلة العباسية ، لعلك تذكره .. على محمد على ، ذهب إليه وقال له بسخرية « نجيب كاتب عنك » ، عندئذ أخرج مسدسه ، وشتمنى ، بالطبع اختفيت عنه ، كان هذا الشخص من الأثرياء ضيع ثروته حتى تسول ، وكان ينام بمقهى الفيشاوى ، دخل السجن بسبب المخدرات ، كانت العقدة فى حياته علاقته بأمه ، وكان دائما يصاحب العديد من النساء ، وفى نفس الوقت لا يمارس أى فعل ، كان من الممكن أن يقتلنى ، مع أنه لم يقرأ الرواية ، كان شخصا شريرا شاذا ، فى الرواية تجد شخصا آخر ، رقيقا وهادئا ، كاد صديقى على محمد على أن يتسبب فى مأساة بسبب حبه للسخرية . سافر حسين بدر الدين إلى الكويت ، وهناك عمل بمساعدة أحد أصدقاء والده ، ثم مات ، أما أحمد عاكف الواقعى فلا أدرى إن كان على قيد الحياة أم توفاه الله الآن .. أذكر أنه زارنى آخر مرة منذ ثلاثين عاما ، ثم اختفى .. والآن .. لنرجع إلى الثلاثية ..

الثـــلاثيــة ....

... كتبت الثلاثية وأنا فى عنفوانى ، صبور ، جلود ، عمل كهذا كان يحتاج إلى صبر ، إلى صحة ، لو أنك رأيت أرشيف الثلاثية ستدرك مدى ما أقول ، ما خططته من أجل كل شخصية ، كل شخصية كان لها ما يشبه الملف ، حتى لا أنسى الملامح والصفات ، خاصة أننى أعمل فى كل سنة من اكتوبر إلى ابريل فقط بسبب مرض الحساسية الذى يصيب عينى ، كذلك التخطيط للرواية كلها بحيث تمضى فى بناء متماسك ، قسم كبير من الأوراق ، والكراسات ، كتبتها فى أكثر من أربع سنوات ، بدقة ، بهدوء ، بتأن ، تحدونى الرغبة إلى أن أنهى شيئا جيدا ، ولم يكن صراعى مع اللغة قد بدأ بعد والذى واكب الأشكال الحديثة ، كنت أكتبها بأسلوب هادىء ، بالمناسبة ، فإن أكبر صراع فى حياتى مع اللغة العربية ، منذ أول كتاب ، فى عبث الأقدار تجد أسلوبا قرآنيا . كما تعلمنا .. ان الأسلوب لا علاقة له بالموضوع ، وعندما جئت إلى الأدب الواقعى ، كان الأمر صعبا ، كان الأسلوب لا يمشى فى يدى ، لا يطاوعنى ، دخلت فى صراع بلا شعور . بينى وبين اللغة ، ربما لو كنت أدرى أننى فى صراع كنت فقدت الاتجاه ، لكن الخناقة دارت فى اللاشعور ، كيف أذلل اللغة ؟ كيف أطوعها ؟ كيف يكون الحوار مقبولا مع أنه فصيح ، ولذلك إذا استعرضت بعض القصص الأولى ستجد أشياء مضحكة ، على سبيل المثال ربما تجد شخصية فى مقهى بلدى وتتحدث بأسلوب فصيح متقعر ، لم يكن هناك مثال أحتذيه ، كل العباقرة الذين سبقونا لم يكتبوا عن أحياء شعبية ، وإذا كتب ، فانه يكتب الحوار بالعامية ، ليست هنا مشكلة ، وإنما ان تطور اللغة كى تصبح فنية وواقعية ، فتلك مشكلة ، وهذا أصعب ما وجدته ، أو صادفته فى حياتى الروائية ، لم يكن هناك نموذج يحتذى ، ومما يلاحظ على كتاب الدكتور

عبد المحسن طه بدر « نجيب محفوظ .. الرؤية والأداء » ، إنه لم يتكلم عنى فى موقعى ، لم يقل ، كيف وجدت الرواية ، كيف تطورت بها ، وإلى أى حد وصلت ، لم يراع الظروف التى كانت محيطة بى فى البداية ، لقد تحدث حديثا مطلقا ، كأنه يتكلم عن أديب انجليزى ، لو رجع إلى اللحظة الزمنية التى بدأت فيها الكتابة لعرف المتاعب التى واجهتنى ، لهذا جاء بحثه مجردا ، بحثا عقلانيا ..

معايشة دائمة ....

... نعود إلى الثلاثية ، ان مادتها يمكن القول انها عاشت معى منذ الطفولة ، الناس الذين كتبت عنهم عايشتهم على فترات زمنية مختلفة من حياتى ، الحكاية هى .. كيف كان يمكن أن أصب هذه التفاصيل فى عمل واحد ، الحقيقة من الصعب أن أقول لماذا خرجت بهذا الشكل ، ولم تصدر بشكل آخر ، كان من الممكن أن تخرج فى النهاية بأشكال عديدة ، كيف تكون فى خلايا مخى بهذه الطريقة بالذات ، فهذا مالا أستطيع أن أجد له تفسيرا واضحا ، كانت الثلاثية شاغلى طوال السنوات التى عملت خلالها على إنجازها ، وهنا أود أن أقول لك ملاحظة هامة ، إذا كان عندك موضوع معين فلا تؤجله . لماذا ؟ كان عندى موضوع عن مصر الحديثة بعد الثورة ، لم أفكر فيها كثلاثية مع أننى أخطط لها على هذا الأساس ، فى هذه الفترة لم يكن لدى الصبر أو الجلد أو الثقة بأن العمر سيسمح بانجازها ، أثناء كتابتى للثلاثية كان عندى إحساس يقينى أننى سأنهيها ، طبعا من الممكن أن يموت الانسان فى أى وقت ، ولكن هذا الاحساس أفتقده الآن ، لا أعتقد أنه يمكننى المجازفة بعمل ضخم كهذا فى مثل عمرى الآن .. لا .. الحرافيش استغرقت فى كتابتها سنة ، فكرت فيها حوالى سنة ، واستغرقت كتابتها سنة أخرى ، وكانت دفقة خيال ، لا يحتاج إلى جهد كبير مثل الذى احتاجته الثلاثية ، العمل الواقعى هو الذى يحتاج إلى رصد ، وتجميع ، أما وقت الحرافيش فكان ملموما .. بخلاف الثلاثية ، كانت شخصيات الثلاثية لا تبرح فكرى إطلاقا ، ومن هنا حافظت على وحدة الاتجاه فى الرواية ، حتى فترة الأجازة ، أو فى فترات الانقطاع بسبب شغلى فى وزارة الأوقاف ، حتى فى السينما ، كنت أعايش الشخصيات والأحداث ، وعندما كنت أستأنف الكتابة بعد انقطاع ، لم أكن أعيد قراءة ما سبق أن كتبته ، الله يرحمه محمد عبد الحليم عبد الله قال لى إنه حريص على قراءة ما سبق أن كتبه ، إننى أقرأ العمل بعد أن أعيد كتابته ، بعد التبييض ، أنتظر فترة ، ثم أعيد قراءته ، وفى جميع الحالات أشعر بعدم الرضى ، أشعر بالفرق بين التصور المبدئى وبين ما أنتجته فعلا ، بين الطموح وبين ما تحقق ، ولكنه

عدم رضى لا يؤدى إلى إلغاء ما كتبته ، المرة الوحيدة التى اضطررت فيها إلى إلغاء عمل كتبته حدثت بعد انتهائى من رواية « ما وراء العشق » وقد كتبتها خلال السنوات الأخيرة ، بعد إنتهائى منها شعرت بعدم رضى نهائى ، من الصعب أن أقول لك ما الذى أثار ضيقى منها ، كنت مطمئنا إلى القسم الأول منها ، لكن القسم الثانى أشعرنى بعدم إرتياح ، ولكن هذا نوع مختلف عن عدم الارتياح الذى ينتج بسبب ما .. كان فى خيالك ، وما تحقق بالفعل ، لقد كان لدى ثلاث روايات « أفراح القبة » و « ألف ليلة وليلة » وتلك الرواية ، دفعت بالروايتين الأوليين إلى النشر ، واحتجزت « ما وراء العشق » إلى السنة القادمة ، كى أعيد فيها النظر ..

كيف أنظر إلى الثلاثية الآن ؟

الحقيقة أننى لم أعد النظر فيها ، لم أقرأها مرة أخرى ، لكن يمكن القول أن الثلاثية وأولاد حارتنا والحرافيش ، هى أحب أعمالى إلى نفسى .. فى الثلاثية كما قلت جزء كبير من نفسى ، يتمثل فى شخصية كمال عبد الجواد ، وكمال لم يدخل إلى الثلاثية اعتباطا ، وليس لانه جزء منى ، ولكنه ظهر بهذه الصورة لأنه جزء لا يتجزأ من موضوع الرواية . الرواية قادمة من عصر كلاسيكى ، ومتوغلة فى عصر رومانتيكى ، ومتجهة إلى عصر تحليلى ، وفيها تلاقى الشرق بالغرب ، ولكن ليس من خلال رحلة كتلك التى قام بها توفيق الحكيم ، أو يحيى حقى ، أو الطيب صالح ، انها تمثل الذى وجد الغرب وهو فى الشرق ، وجاءت إليه مظاهر الحضارة ، فكان لابد من شرح هذه التغيرات فى النفس وفى الروح وفى العقل ، ولما كنت قد عانيت بسبب ذلك تجربة ضخمة ، فكان من الضرورى أن تنعكس فى الرواية ، وجدت أن أفضل من يمثلها جيل الوسط ، بالطبع كان من المستحيل أن تجدها عند يس ، كان من الممكن أن يمثلها فهمى ، ولكن فهمى مات ، إن أزمة كمال هى أزمتى ، وجانب كبير من معاناته هى معاناتى ، من هنا يجىء حبى للثلاثية ، وحنينى إليها ..

الأدب العظيم .. ينبع من الذات ..

... مع تقدم العمر يشعر الانسان ويدرك أن منشأه هو المأوى !

كأنه يعيد دورة الحياة ، إنه يقابل بعالم جديد يبدو لأول وهلة أنه ليس عالمه ، لا يكفى أن تفهم عالما ما حتى يصبح عالمك الذى يخصك ، إن المعايشة أعمق من ذلك ، نحن نتجه إلى عالم جديد ، هذا العالم يقينا لن أعايشه ، أنا فى نهاية مرحلة ، أقول عمر ، ما هى التجربة الحية المكتملة التى عشتها ؟ ستجد أنها تتمثل فى القديم ، ليس بمعنى الرجوع إلى قيمه ، أو بمعنى رفض الجديد ، ولكن باعتباره المأوى الخاص بك ، لانك عايشته وفهمته ، أما الجديد ، الآتى ، فأنت تتمنى له الخير ولا شىء غير ذلك ، لانك لن تشارك فيه بنفسك ، على سبيل المثال أنا عندى أولاد الآن ، أدرك تماما أنهم سيعيشون حياة مختلفة ، أدرك أننى لن أشارك فيها . لذلك فى هذا الاضطراب ، فى هذه الدنيا الغريبة ، يركن الانسان إلى طفولته ، إلى العمر الآمن الذى انقضى ، من هنا قد أكون أجبت عن سؤالك حول حنينى إلى الحارة ، ومصادر رواية الحرافيش ، والقدرة على استعادة واقع انقضى .. يخيل لى أن الانسان كلما تقدم فى العمر يتذكر طفولته أكثر ، ويستعيد تفاصيل كان يخيل إليه أنها اندثرت ، لماذا ؟ لان هذه الفترة عاشها حياة كاملة غير مرسومة . حدث لى أن كل التجارب الروائية الأولى كانت نتيجة حياة عاشت بدون تخطيط ، الذى كان يتحكم فى علاقاتها العلاقات الانسانية ، أنت تعرف الانسان كإنسان .. وبس .. فيه مودة ، نفور ، حب ، كله طبيعى ، مع تقدم العمر ، تبدأ فى مراقبة الناس تحولهم إلى أشياء ومواضيع ، عندئذ يضيع منهم جانب كبير ، يعنى أنا أتصورك مثلا وأنت تلعب فى الحارة ، تعرف ناسا معرفة طبيعية ، بخيرها وشرها ، يصح أنك أصبحت اليوم بدون تلقائية الزمن الماضى ، لا .. لك فلسفتك

ونظرتك ، ربما تنظر إلى الناس من جانب الطبقات ، هنا فقدت الانسانية جانبا منها ، فى الصغر كنت أشوف أحد الفقراء ، أرثى له ، أحزن ، أشوف واحدا ثريا أنفر من جانب فيه أو العكس ، فى الكبر بدأت أضع هذا فى جانب ، وذاك فى جانب ، هذا معى ، وهذا ضدى ، هذا يفقد جوانب ، الحياة الأولى هى التلقائية والطبيعية ، وتمدك بالانسان فى كامل أبعاده ، ولا تعوض ، كلما تقدمت فى السن ، وأصبح لك فلسفة ، ورؤية ، تتغير الأبعاد ، يصبح عندك منظور يرى الأشياء أكثر من غيرك ، وأشياء يعمى عنها لا يراها ، ولهذا التجارب الأولى ، عندما بدأنا الكتابة كنت لا أتخيل مطلقا أننى سأصل إلى نقطة معينة ولا أجد عندها ما أكتبه . لماذا ؟ لأن كل ما أراه جدير بالكتابة ، كان ذلك يبدو مستحيلا ، لكن بعد التقدم فى العمر ، واكتساب رؤية وخبرة ، يبدأ فى انتقاء موضوعات معينة تتفق مع رؤيته ، من هنا قد تمضى سنوات وهو لا يجد ما يكتبه ، كثير من الحوادث قرأتها فى الصحف لم أتأثر بها ، حتى قرأت حادثة محمود أمين سليمان فى الصحف ، من هنا ولدت اللص والكلاب ، لقد حدثت لى هوسة بهذا الرجل ، أحسست أن هذا الرجل يمثل فرصة تتجسد عبرها الانفعالات ، والأفكار ، التى كنت أفكر فيها دون أن أعرف طرق التعبير عنها ، العلاقة بين الانسان والسلطة ، ومجتمعه ، طبعا بعد أن كتبت عنه ، لم أكتب قصة محمود أمين سليمان ، أصبح الموجود هو سعيد مهران ، فى فترة بدائية قبل ذلك ، كانت كل حادثة تستحق أن تكتب ، الآن كم من الحوادث تمر بى ولا تستحق أن تكتب من وجهة نظرى ، ان المنجم الحقيقى هو الماضى البعيد ، ستجد أنك تحب كل من عرفت ، وترغب فى الكتابة عنهم ، أما الآن فالأمر عكس ذلك ..

الشكل والمضمون ....

... حنينى إلى الحارة جزء من حنينى إلى الأصالة ، عندما بدأنا نكتب الرواية ، كنا نظن أن هناك الشكل الصح والشكل الخطأ .. أى أن الشكل الأوربى للرواية كان مقدسا ، بتقدم العمر تجد أن نظرتك تتغير ، وأنك تريد

أن تتحرر من كل ما فرض عليك ، ولكن بطريقة تلقائية وطبيعية ، وليس لمجرد الخروج أو كسر الشكل عمدا ، تجد نفسك تبحث عن النغمة التى تستخرجها من أعماقك ، أيا كانت هذه النغمة ، سواء عادت بك إلى القديم ، أو قادتك إلى المودرنيزم ، أو عادت بك إلى الحدوتة ، يعنى كأنك تقول ، ما هى الأشكال التى كتبوا بها ، أليست طرقا فنية خلقوها هم ، لماذا لا أخلق الشكل الخاص بى الذى أرتاح إليه ؟

بالنسبة لى فيما يتعلق بالثورة على كل ما هو أوربى أو تقليدى ازدادت خلال الخمس عشرة سنة الأخيرة ، أصبحت ثقتى فى نفسى أكثر ، أصبحت أبحث عن النغمة التى أكتب بها من داخل ذاتى أكثر ، اتجاهى إلى الحدوتة أحد معالم هذه المرحلة ، أخص بالذكر الحرافيش ، بعد الحرافيش حاولت أن أستوحى عملا قديما ، وهو ألف ليلة وليلة ، وهى رواية لم تنشر بعد ، لكن يجب أن أوضح لك شيئا مهما ، وهو أن تقليد القديم مثل تقليد الحديث كلاهما أسر ، المهم أن تبحث عما يتفق مع ذاتك ، طبعا الكاتب الأوربى الذى بدأ معى يبحث عن ذاته من أول يوم ، ليس لديه عقد ، ولأنه لا يأخذ ثقافته من الخارج ، ولكن بالنسبة لنا نحن الكتاب الذين ننتمى إلى العالم المسمى بالنامى أو المتخلف ، فقد كنا نعتقد وقتئذ أن تحقيق ذاته الحقيقية الأدبية لا يجىء إلا بإلغاء ذاته ، يعنى أن الشكل الروائى الأوربى ، مقدس ، والخروج عنه كفر ، لهذا خيل لى فى لحظة معينة أن دور جيلنا هو أن يكتب الرواية بشكل صحيح ، لأننى كنت أتصور أن هناك رواية صح ، ورواية غير صح ، الآن .. تغيرت النظرة ، الرواية الصحيحة هى النابعة من نغمة داخلية ، فلا أنا أقلد المقامة ، ولا أقلد جويس ، يعنى الحقيقة أنا حاليا لا يثير أعصابى إلا التقليد ، حتى القديم ، وما أرجوه حقيقة من الجيل الذى يلينا ، والذى قد يصل بنا إلى العالمية ، أن يكون أكثر اخلاصا لهذه النقطة . الاخلاص للذات ، لأنه لا يجب أن يكون الموضوع فقط محليا ، ولكن الشكل أيضا ، يوم أن نحقق هذا ، يمكن القول عندئذ أننا قدمنا أدبا عربيا صحيحا إلى العالم ..

... ربما كانت ثرثرة فوق النيل ، واللص والكلاب ، لكسر الشكل التقليدى فى الرواية كما تقول ، ولكن لاحظ أن ذلك فى إطار الشكل الأوربى ، الحقيقة أن الانسان فيه قدر من الأصالة مهما حاول التقليد ، لذلك تيار الوعى فى أيدينا لم يعد هو تيار الوعى هناك ، كذلك اللامعقول بين أيدى كتابنا أصبح لا معقولا مختلفا ، لا معقولنا يؤدى إلى المعقول ، لم يكن الأمر مجرد محاكاة فقط ، إنما خلق شيئا مختلفا ..

... لكل كاتب نوعية من الشخصيات يفضل التعامل معها ، لكن المسألة لا تجىء بتخطيط ، الموضوع يجيب صاحبه معه ، أحيانا الواحد يكون قد عرف شخصيات وينساها ، ثم يطغى فجأة فى فترة معينة ، بعد أن يعرف الانسان طريقه ، ككاتب مسرح ، أو رواية ، يكون غالبا فى العشرينات عنده مخزون تجارب لا حصر له ، تؤثر فى الوجدان ومتراكمة ، تصبح المشكلة الأولى بأى شىء تبدأ ، لذلك كانت الالهامات سريعة ، بعكس الحال بعد تقدم السن ، ويكون قد تحرر من ضغوط الوجدانات الكثيرة التى صاغ منها سلسلة أعماله ، الاختيار مع تقدم العمر يصبح أصعب ، فى البداية تكون أشبه بأنك عندك مخزون سلعى كبير ، ثم تخلصت منه ، بعد ذلك يكون الانتقاء .

ما يثير سخريتى ، أن بعض الناس يقولون « الكاتب ده قال اللى عنده » ماذا يعنى الذى عنده ، أننا هنا لسنا أمام فيلسوف ، أو مفكر ، بالنسبة لهؤلاء كتاب أو كتابين وقد ينتهى الأمر ، لكن بالنسبة للأديب فإن الحكاية تشبه الغريزة الجنسية ، مادامت فيها حيوية تحتاج إلى الخروج ، هذا هو الأساس ، إذا ذهبت هذه القدرة انتهى الأمر حتى ولو كانت الدنيا كلها مواضيع ، هو ده الأساس ، مش واحد يقول لك ، دا عنده حاجة عايزة يقولها ، عايز يقول إيه ؟ لذلك لما تقول على أى أديب ، دا عايز يقول إيه ، من الصعب ، لكن من السهل أن تجيب على سؤال كهذا بالنسبة لشوبنهاور أو نيتشة ، من أغرب الأسئلة التى أسمعها ، واحد يسأل « أنت عاوز تقول إيه فى القصة دى ؟ » ، طيب ما أنا لو عاوز أقول حاجة معينة .. أقولها فى جملة أو مقالة ، وخلاص ..

السياسة ... والثورة ...
لست معاديا لثورة يوليو ..

... دخلت السياسة حياتى منذ الطفولة ، عندما كنت أرى المظاهرات فى ميدان بيت القاضى ، فى المنزل كان الوالد والوالدة متعاطفين مع الوفد ، وإذا ذكر اسم سعد زغلول فانه يذكر باحترام ، وتقديس ، وعندما بدأت أقرأ الصحف ، كنت أجرى بعينى على السطور حتى أجد اسم الزعيم فأتوقف عنده ، لكن ما زرع فى أرواحنا الوطنية ، وعلمنا أصولها ، هم المدرسون ، خاصة أولئك المعممون من أساتذة اللغة العربية ، كانوا يتوقفون خلال الحصص عن الدروس ويبدأون أحاديثهم عن الوطنية ، وكانوا يوبخون الطلبة الذين لا يشتركون فى المظاهرات ، أو يتهربون منها ، كانت اللى ماسكة غطاء حلة ، أو ايد هون ، أو عصا ، النساء المحجبات كنّ يمشين بوقار منظم ، صحيح .. كتر خيرهم ، لكن المظاهرات الحقيقية كانت فى الأحياء الشعبية .. كانت الاضرابات تبدأ بعد الطابور مباشرة ، يعلو التصفيق ، ثم نلقى بالملاعق لأن المدارس كانت تقدم لنا طعام الغداء ، وكان المدرسون يشجعوننا على الخروج فى المظاهرات ، ما أذكره ويهزنى حتى الآن هو مظاهرات النساء فى ميدان بيت القاضى وشوارع الجمالية ، كتب التاريخ تحدثك عن مظاهرات المحجبات من سيدات المجتمع ، وخروج طالبات مدرسة السنية ، لكنها لا تذكر مظاهرات نساء الحوارى والأزقة ، لقد رأيتهن بعينى ، وكان شيئا لا مثيل له .. فى صور المظاهرات ترى النساء المحجبات زوجات الباشوات ، ويقولون .. المرأة المصرية ، إمرأة مصرية مين ؟ أنا شفت آلاف النساء فى الجمالية فوق عربات الكارو .. نساء الحوارى ..

ملحوظة :

نستعيد الفصل الخاص بالشيخ هجار المنياوى فى رواية المرايا :

كان الشيخ هجار المنياوى مدرس اللغة العربية فى مدرستنا الابتدائية ، ولحق بنا فى المدرسة الثانوية ، وكان من أهل الصعيد ، ينطق بلهجتهم ، قوى البنيان طويل القامة غامق السمرة ، قليل العناية بمظهره ، فعمته أصغر مما ينبغى ولا ذوق له فى اختيار ألوان الجبة والقفطان ، ولكنه كان يفرض الاحترام بقوة شخصيته والتمكن من مادته وشجاعته الفائقة ، ولم يكن متزمتا ، كان يحب النكتة ، ويروى لنا جميل الأشعار ، ومرة تبارى فى فناء المدرسة مع مدرسى الرياضة البدنية فى التحطيب . فلعب بعصاه برشاقة أذهلتنا وانتصر على خصمه وسط تصفيق حاد . ومرة دخل جعفر خليل الفصل متأخرا بعد أن انتظمنا فى مجالسنا ، وكعادته فى حب المزاح ، قلد أستاذنا فقال له :

— عم صباحا .

وضحك الفصل وانبسط جعفر ، وتركه الشيخ هجار حتى جلس ، ثم ناداه :

— جعفر خليل .

فوقف فقال له بهدوء :

— أعرب « عم صباحا » ..

وعجز جعفر عن إعرابها ففتح الشيخ دفتر يومية التلاميذ وأعطاه صفرا ، فاحتج جعفر قائلا :

— إنها صعبة !

فقال الشيخ بهدوء :

— ولم تستعمل ما لا تفهمه ؟

أما جانبه الجاد فكان فذا لا يتكرر ، كان فى المدرسة الابتدائية ـ عصر الثورة ـ مدرسا للغة العربية والوطنية . فلدى

أى مناسبة يفتح باب الحديث الوطنى ، يستعيد الذكريات المجيدة . ويشيد بالأبطال ، ونحن نتابعه والدموع فى أعيننا ، وكان يحدث عن سعد زغلول وكأنه من أولياء الله أو صاحب معجزات ، معتبرا زعامته رسالة سماوية ومعجزة تاريخية ، ومنه عرفنا ما لم نكن نعرف عن نشأة سعد ، ومهارته فى المحاماه ، ومواقفه فى نظارة المعارف ونظارة الحقانية ، وزعامته ، وتحديه لقوة الانجليز ، وسحره وبلاغته ، وما ينتظر البلاد على يديه ، وكان يقول :

— ببلاغته عبأ الشعور ، وباسمه قامت الثورة ..

وكان يعرف التلميذ الكامل فيقول :

— هو من يحصل العلم ويثور على الطغاة ..

وكنا نحبه بقدر ما نجله ، ونتلقى عنه الوطنية والأصالة ، وبفضله أحببنا اللغة العربية وعشقنا أشعارها ..

وفى المدرسة الثانوية تغير مذاق الجهاد ، فتوارت عنا وجوه الانجليز وبرزت فى الصورة وجوه المصريين الموالين لهم ، واحتلت الحزبية المكان الأول فى الصراع ، وخاض الشيخ المعركة الجديدة بنفس القوة والصلابة ، وكان يقول :

— المعركة هى المعركة ، ولكن الأعداء ازدادوا عددا فوجب علينا مضاعفة الجهاد .

ويوم أضربنا على عهد محمد محمود ، اليوم الذى إستشهد فيه بدر الزيادى ، أخرجه ناظر المدرسة وطالبه بأن يخطب التلاميذ حاثا إياهم على الانتظام فى الدراسة ، وكان فى طبعه حدة تثور على التحدى وتنفجر غضبا أعمى ، فاعتلى المنصة أمام حجرة الناظر وصاح بصوت رهيب :

— العلم يطالبكم بالنظام والوطن يطالبكم بالجهاد وليس لكم إلا ضمائركم فارجعوا إليها ..

وكتب الناظر تقريرا عنه فرفعه إلى وزير المعارف وسرعان ما تقرر فصله ، ويوم غاب عن المدرسة وانتشر الخبر ، هاجم

الطلبة حجرة الناظر حتى اضطر إلى الفرار من المدرسة ، واضطرت الوزارة إلى نقله حماية لحياته ، وقد عاد الشيخ إلى المدرسة فى عهد الوفد ولكنه فصل مرة أخرى فى عهد صدقى ، فعمل فى مدرسة بين الجناين الأهلية التى كان يملكها رجل وفدى معروف . وفى حكومة المعاهدة تعين مفتشا بالوزارة وسويت حالته تسوية عادلة . وفى انتخاب ١٩٤٢ رشح نفسه على مبادىء الوفد فنجح . كما نجح مرة أخرى عام ١٩٥٠ . وقد التقيت به مرات في بيت رضا حمادة كما عرفت بعض أبنائه . ولما صدر قرار حل الأحزاب ـ بعد ثورة يوليو ـ رجع إلى قريته فى الصعيد فلم يبرحها ، ولا أدرى إن كان مازال على قيد الحياة أم انتقل إلى جوار به . ومما يذكر أنه فى سبتمبر عام ١٩٥٢ وكنت مارا أمام نادى الجيش القديم بالشاطبى ، رأيت بعض أعضاء الوفد واقفين فى فناء النادى يحيط بهم جند ، وسمعت من بعض المارة بأنهم اعتقلوا وسيرحلون إلى القاهرة ، ورأيت بين الضباط الذين يشرفون على الاجراءات الضابط محمد هجار ابن شيخنا القديم هجار المنياوى . تأملت الموقف ، نظرت طويلا إلى الابن ، تذكرت الأب ، ثم خيل إلى أنى أسمع هدير الزمن وهو يتدفق حاملا متناقضاته المتلاطمة ..

كدت أفقد حياتى ....

اشتركت فى جميع المظاهرات التى جرت ، أذكر أننى كنت أمشى مع عدد من الأصدقاء فى شارع محمد على ، فجأة رأينا أحد أبناء البلد يحمل حجرا كبيرا ويضرب رأس كونستابل انجليزى فيصرعه . فى نفس اللحظة رأينا عددا من الخيالة قادمين من ناحية العتبة الخضراء ، نظرنا إلى الخلف لنستدير ونجرى ، فوجئنا بقوات من الجيش ، كنا محصورين ، ولا أحد سوانا فى الشارع وجثة القتيل الانجليزى ملقاة أمامنا ، أما ابن البلد فقد هرب ، تعرف ان بعض حوارى شارع محمد على منحدرة إلى أسفل ، تؤدى

إليها سلالم ، صاح أحدنا ..

إجر .. إجر ..

جرينا ، جريت بأسرع ما يمكن أن أجرى به ، من حارة إلى حارة ، حتى فوجئنا بحارة سد لا تؤدى إلى أى منفذ ، أدركنا يأس قاتل ، فجأة أطلت امرأة من إحدى الشرفات ، وأشارت إلى باب البيت ، دخلنا ، أغلقنا خلفنا ، نظرت إلينا من فوق السلم ،

اطلعوا ..

طلعنا إلى السطح ، عبرنا إلى السطح المجاور ، ونزلنا فى بئر السلم ، انتظرنا حوالى نصف ساعة ، خيم فيها صمت فظيع ، ثم خرجنا ، ومشينا حتى شارع عبد العزيز ، ثم إلى العتبة الخضراء ..

المظاهرة التى مات فيها فهمى عبد الجواد فى الثلاثية مظاهرة حقيقية من الناحية التاريخية ، لم أستوح هذه الحادثة فى الثلاثية ، أما مظاهرة فهمى فكانت عند حديقة الأزبكية ، مظاهرة مسموح بها ، وكان فيها الطلبة والعمال ، والقضاة ، وفجأة أطلق الانجليز النار ، وقتلوا عددا من الناس ، لا أدرى لماذا اخترت هذه المظاهرة بالذات ليموت فيها فهمى ، هذه ناحية لا أستطيع تفسيرها ..

الكفر ....

كان الوفد هو حزب الأمة بلا جدال ، وكان من يقول انه ليس وفديا يبدو فى نظرنا كأنه كافر ، كان الوفد يعبر عن القضية الوطنية والاجتماعية ، كان أول انقلاب على الدستور مصيبة ، بعده كنت أمشى أكلم نفسى من الضيق والقهر ، ثم بدأت المشكلة الاجتماعية تلفت النظر ، أضف إلى ذلك تأثير سلامة موسى ، لهذا وجدت أن أنسب شىء هو الجناح اليسارى للوفد ، لهذا عندما جاءت ثورة يوليو وأعلنت مبادئها خيل إلىّ أن هذه هى مبادىء الجناح اليسارى الوفدى لو أنه حكم ، لهذا ، رحبت بها حقيقة ، بل انها تجاوزته إلى تغيير الملكية وهذا ما لم يكن سيحققه يسار الوفد ، لقد رحبت

بالثورة فعلا ، طبعا كنا نتمنى لو أن الثورة اتخذت قاعدتها من الوفد أساسا باعتبار انه القاعدة الشعبية القديمة ، لكن ما يحدث دائما عكس ذلك ، لأن للثورة شعبية أيضا وستصبح مهددة ، لسوء الحظ عادت الثورة الوفد ، وكان يمثل قاعدة شعبية ، ومن هنا بدأ ضرب الديموقراطية ، كان من الممكن فى رأيى أن تمضى المسيرة الديموقراطية إذا ما اعتمدت الثورة على إنجازاتها كضرب الاقطاع وإنهاء الاحتلال ، كان سينضم إلى الثورة أنظف من فى الأحزاب ، لكن ضاعت الفرصة ، لهذا وقعت فى إطار الحكم العسكرى ، صحيح أنها أنجزت إنجازات هامة ، لكن غياب الديموقراطية يهدد الاصلاحات ، وإذا تأملت الآن ماتم ، ستجد أنه أضير بسبب غياب الشورى والديموقراطية ، معظم الأخطاء التى وقعت كان سببها الإنفراد بالرأى والقرار ، الحكم الفردى يصبح كالقضاء والقدر ، وأنت وحظك ..

الزعـــيم ....

... لم أر سعد زغلول بعينى ، يوم أن ذهبت إلى عابدين لأراه ، جاء فى سيارته لمقابلة الملك ، ولكن الكتل البشرية حالت دون رؤيتى له ، عينى لم تقع عليه ، رحت بيت الأمة أيام النحاس ، من المشاهد التى لن أنساها ، جنازة سعد زغلول ، طبعا من الصعب مقارنتها بجنازة جمال عبد الناصر ، لأن القاهرة فى الوقت الأول كانت مليونا فقط ، ولكن المؤكد أن المشهدين من أجل الحوادث التى شهدتها القاهرة فى هذا القرن ، كان سعد محبوبا إلى درجة غريبة ، لى صديق قبطى ، أطلعنى منذ سنة أو سنتين لا أذكر على دعوة زفاف أخته ، أنت تعلم أن دعوة الزفاف تكون مبهجة ، هذه الدعوة كانت مجللة بالسواد ، كان مكتوبا فيها « فلان وفلان يدعوكم إلى كنيسة كذا لحضور أكليل .. والبقية فى حياتكم لموت زعيم الأمة » ، طبعا فى ظروف عادية هذا يثير التشاؤم ، هل رأيت أو سمعت عن دعوة زفاف بهذا الشكل ؟

إنها فترة لا توصف ، حتى المؤرخ الذى كتب عن هذه الفترة يختلف عن الذى عايشها بنفسه ، هناك ناس يستنكرون هذا الحب بالنسبة لسعد ، ولكن

هذا الحب كان مدرسة للوطنية ، كانت مصر تقاطع البضائع الأجنبية ، لأى موقف ، كنت تشوف المحلات الكبرى الأجنبية فارغة تماما من الزبائن ، أما شركة بيع المصنوعات فالزحام فيها لا يطاق ، أى حاجة مصرية حتى ولو رديئة جدا كانت تثير الفخر ..

لست معاديا للثورة ....

... فى جميع ما أكتب ستجد السياسة ، من الممكن أن تجد قصة خيالية من الحب أو أى شىء ، إلا السياسة ، لأنها محور تفكيرنا ، الصراع السياسى موجود ، حتى فى أولاد حارتنا التى يمكن أن تصفها بأنها رواية ميتافيزيقية ستجد الصراع على الوقف ، بعد ثورة يوليو ١٩٥٢ تناولت موضوعات حساسة جدا ، مثل ميرامار أو ثرثرة فوق النيل ، الحقيقة أنت قلت كلمة صادقة جدا منذ أسبوعين ، قلت إن نجيب محفوظ عندما يكتب لا يعبأ بشىء ، وينسى كل شىء . هذا حقيقى ، كنت أحيانا بعد أن أسمع ردود الفعل أتوقع أشياء مرعبة ، خاصة بعد قصة مثل « الخوف » . فى الشارع مرة أجد واحدا يسألنى عن معناها ، ربما تكون حاجة بريئة ، لكننى كنت أخاف ، لكن لاحظ أنا كنت أنقد الواقع نقد المنتمى إليه ، أنا لم أرفض ثورة يوليو مطلقا ، ولم أكتب أى عمل ضدها ، أنت تعلم أن هناك روايات معادية للثورة ، كنت أوجه النظر إلى سلبيات تسىء إلى الثورة ، لن تجد كلمة بالاشارة أو التلميح ضد الاصلاح الزراعى ، أو مكاسب العمال والفلاحين ، فى ميرامار انتهازية الاتحاد الاشتراكى ، هذا كان حقيقيا ، ربما كان ذلك سببا فى عدم البطش بى ، أيضا فإن إحساسك بالبراءة يمنحك الشجاعة ، بمعنى أننى لم أكن منضما إلى جماعة سرية ، أو متصلا بسفارة ما ، ليس معقولا أن أكون معاديا للثورة ثم أكتب فى الاهرام ، وأمنح كل هذه الفرص التى حصلت عليها ..

إبنتى تسأل من هو سعد زغلول ؟ ...

... لم أعرف أى شخص من زعماء الوفد معرفة شخصية ، كل الوفديين الذين أحببتهم ، عرفتهم فى جلسة توفيق الحكيم خلال السنوات الأخيرة ، هل تذكر محمود غنام ؟ ، قابلته عند توفيق الحكيم ، وقال لى إنه شافنى فى التليفزيون ، وسمعنى أقول إن أحب زعيم إلى نفسى هو سعد زغلول ، قام نط مفزوعا من الكرسى ، قال لى : أنا افتكرت انه حيقبض علىّ أنا مش انت ، ورحت أسأل ، مين ده ؟ ، بعد ظهور الثلاثية ، كثير من الوفديين وجدوا فيها أول كلام جيد عن الوفد ، حتى الذين خرجوا على الوفد قبل الثورة قرأوها وشافوا روحهم فيها ، يعنى مثلا إبراهيم عبد الهادى كان يقرأها ويحض الناس على قراءتها ، كثير من التاريخ الذى حفلت به الثلاثية كان مات ، واسم سعد زغلول لم يكن يذكر فى المدارس ، بعد ظهور الوفد الجديد منذ ثلاثة أعوام أرادوا أن يحييوا ذكرى سعد والنحاس ، بنتى الصغيرة سمعت اسما جديدا ، فسألتنى عن سعد زغلول وهل مازال يعيش .. من أين هذا ؟ طبعا صدمت صدمة كبيرة ..

مصر الفتاة والاخوان ....

... كنت أعرف الاخوان المسلمين ، ومصر الفتاة ، وأتابعهما ، مصر الفتاة بدأت كنشاط شبابى ، ومشروع القرش لصناعة مصنع للطرابيش ، ولكنها كانت تخفى هدفا سياسيا ، وكان زعيمها انتهازيا ، أعلن تأييده لمحمد محمود ، كيف تؤيد اتجاها معتدلا وأنت تعلن التطرف ، وفوجئنا بهم وقد أصبحوا فاشيست ، عاديناهم ، ولم أتعاطف معهم أبدا ، أما الذين كرهتهم منذ البداية ، فهم الاخوان المسلمون ، الاخوان فى البداية كانت جمعية دينية تضم وفديين وغير وفديين ، ولكن عندما وجدناهم بدأوا

ينافسون الوفد ، عاديناهم ، كنا نعتبر أى منافسة للوفد ، بمثابة إضعاف لقوته الضاربة ، لم يكن الوفد فى الانتخابات يرشح أمام مرشحى الاخوان إلا الأقباط ، وكان مرشحو الوفد يكتسحون .

لم يكن لى أصدقاء من الاتجاهات الأخرى إلا استثناءات محدودة جدا مثل عبد الحميد السحار ، الذى كان يميل إلى الاخوان ، كان يقول لى تعال قابل الشيخ البنا وبعدين احكم . لكننى لم أكن أطيق هذه السيرة أبدا ..

عبد الناصر ....

... لم ألتق بعبد الناصر فى لقاءات خاصة ، إنما رأيته ثلاث مرات عندما حصلت على وسام الاستحقاق من الدرجة الأولى ، طلعت وسلمت عليه ونزلت ، المرة الثانية سنة ١٩٥٧ ، كان هنا عدد من الأدباء العرب ، التقى بهم ، وكنت أحد الذين ذهبوا إلى اللقاء ، المرة الثالثة كانت فى الاهرام ، عندما زاره فى سنة ١٩٦٩ إذا لم تخنى الذاكرة ، كان يتحدث إلى كل شخص ، قال لى :

إزاى ناس الحسين بتوعك .. بقالنا زمان ما قريناش لك قصة ..

هيكل قال له :

لا .. دى بكرة طالعة له قصة

كان يوم خميس ، هيكل قال :

نعمل إيه .. ماهى قصصه تودى الليمان ..

عبد الناصر قال له :

لا .. دى تودى رئيس التحرير ..

طبعا عبد الناصر وسعد زغلول طوران مختلفان ، عبد الناصر أنجز أشياء بارزة للبلد لايمكن أن تغفل ، من الصعب المقارنة ، سعد زغلول كان الشرارة الأولى ، كان يريد الاستقلال ، عبد الناصر جاء إلى البلد وهى شبه مستقلة ، وأنجز ثورة اجتماعية حقيقية ، للأسف الثورة اتخذت موقفا معاديا من سعد زغلول ، حتى منع اسمه من الكتب والأفلام إلى آخره ، ثم دار

الزمن دورته ، منذ أيام كنت أشاهد فيلما عن وفاة تيتو ، وظهر جميع زعماء العالم الذين عرفوا تيتو ، ما عدا صورة عبد الناصر ، مع أنك تعرف إلى أى مدى كانت علاقة عبد الناصر بتيتو !

التاريخ والمأساة ....

كنت عزوفا عن إقامة علاقة مع المسئولين أو السياسيين ، لم أسع لمقابلة أحدهم ، للأسف تاريخنا الحديث ثورات ونكسات ، لو أن الأمور مضت بشكل سليم منذ عهد محمد على لأصبحنا مثل اليابان الآن . السياسى العبقرى هو الذى يفهم الظروف ، ثم يتخذ القرار المناسب ، إلى أى حد يجب أن يخوض المعارك مع القوى الأجنبية ، ومتى ؟ .. لو .. ولكن التاريخ لا تصح فيه كلمة لو .. والانسان لا يتذكر التاريخ إلا بعد أن يصبح الأمر مأساة ..

الفتوات .. والمقاهى ....

... ترجع ذكرياتى عن الفتوات إلى منطقة الحسين ، كان من المعروف فى صغرى أن لكل حارة ، أو حى ، فتوة ، شفت الفتوات فى نوعين من الحوادث ، أولا .. الزفة .. كانت الزفة تبدأ بعدمنتصف الليل ، أصحى من النوم على واحد بيغنى والصهبجية يردّوا وراءه ، وحملة الفوانيس ، يمرون من أمام قسم البوليس فى ميدان بيت القاضى ، يظهرون من حارة معينة ، غالبا فى الزفة يحدث أن يعترضها فتوات ، لأنه لو فيه ثأرات قديمة ، تصبح هذه أحسن فرصة للثأر ، الفرح ينقلب إلى نكد ، شفت زفة تنقلب إلى خناقة دموية أمام القسم ، النوع الثانى ، كان الفتوات يتفقوا على الخروج إلى الخلاء ، فتوة العطوف مثلا مع فتوة قصر الشوق ، للخناق ، لكل فتوة له رجاله ، يشيلوا المقاطف المليئة بالطوب والزجاجات ، ويتجهون كلهم إلى

الخلاء ، خلاء كان اسمه أرض المماليك ، وبعد أن يُحطِّم كل منهم الآخر ، كنت أرى النتيجة ، السيارات تحملهم إلى قسم الجمالية ، تحرر لهم المحاضر ، ثم تجيء عربات الاسعاف لتشيل الجرحى . فيه منظر شفته ، لكن لا يمكن أن تسميه فتوة ، كان رجلا هائل الحجم ، عملاقا أعمى ، عادة كان يمشى فى حاله ، ولكن إذا استفز ، فإنه يصبح قوة مهولة ، رأيته بعينى يقهر فرقة بوليس كاملة ، كان الأمر بالقبض عليه مهمة عسيرة جدا ، الحقيقة أننى منذ خمسة عشر عاما قرأت عنه ريبورتاج أما فى آخر ساعة أو المصور ، كان بدون صور ، ذكريات يبدو كتبها أحد أبناء المنطقة ..

ملحوظة :

نستعيد هنا الحكاية رقم « ٤١ » : من حكايات حارتنا ..

« إبراهيم القرد أضخم بناء إنسانى تشهده عيناى ، لا أتصور أن يوجد بين البشر من هو أطول أو أعرض منه . مئذنة ، يتحسس طريقه بنبوت رهيب ، تحمله قدمان حافيتان كأنهما سلحفتان ، يقول أهل حارتنا إنه من لطف الله أن يخلق إبراهيم القرد ضريرا . وهو الشحاذ الوحيد فى حارتنا فمنذ احترف التسول لم يتجرأ شحاذ آخر على ترديد « لله يا محسنين » ..

يقعد الساعات متربعا عند مدخل القبو ، معتمدا على نبوته ، صمت طويلا ، ينفجر بصوت كالرعد « يا أكرم من سئل » ، يجيئه الطعام فى أوقاته ، تتراكم الملاليم فى جيبه ، يتبادل التحيات مع السابلة ..

وبسبب من حدة التناقض بين قوته الخارقة وبين حرفته المستضعفة فانه مثار للابتسام ، ولكن بلا حنق أو حقد ، فحسبه أنه ابن حارتنا وحسبه انه لا يستثمر قوته فى العدوان !

ويشاء الحظ أن أشهد معركته الكبرى ..

ففى أحد المواسم يهبط حارتنا زلومة ـ شحات ضرير أيضا ـ

من القبو راجعا من القرافة مثقلا بالفطير والتمر ، فيختار مجلسا غير بعيد من القرد ليستريح من عناء يوم مظفر ..

ها هما الشحاذان الضريران يجلسان على جانبى مدخل القبو كأنهما حارسان . ويتلقى القرد بأذنيه الحادتين رسائل خفية من حركات شفتى زلومة ، كما يتلقى أنفه رسائل مغرية من جراب الأغذية ، يتجه رأسه نحو الرجل باهتمام وتساؤل وتحفز ..

ويهتف زلومة فى غبطة :

— يا حسين يا حبيب النبى يا سيد الشهداء .. مدد ..

فيقطب إبراهيم القرد ويتساءل بغلظة :

— من ؟

فيجيبه زلومة ببراءة :

— سائل على وجه الكريم !

— وماذا جاء بك إلى هنا يا ابن الزانية ؟

فيسأل زلومة بحدة :

— أملكت أرض الله ؟

— ألا ترانى ؟

— إنى أرى بنور القلب ..

فيتمتم إبراهيم القرد :

— عظيم ..

يتمطى بنيانه قائما ويمضى نحو زلومة وكأنما يراه ، يقبض على منكبه ، لا أدرى ماذا يفعل به ولكنى أرى الرجل وهو يصرخ ويتلوى ويستغيث . ويتجمهر أناس كثيرون ، يخلصون بينهما بعناء شديد ، يبدر من البعض كلمات غاضبة :

— افتراء وظلم ..

— انت وحش ..

— أنت لا تخاف الله !

ويصيح إبراهيم القرد :

— عليكم اللعنات ..

ويغضب أحدهم فيرميه بسلة محطمة ملقاة ..

ويثور القرد . أجل يثور ثورة أكبر من ثورة مظاهرة زاخرة . كأنما هرست له دملا . يجن جنونه ، يهدر بأقذع الشتائم ، يشهر نبوته ويدور به ويضرب به كل مكان ، فيرتطم بالجدران والأشياء ، وينشر الفزع فى دائرة آخذة فى الاتساع . يتفرق الرجال ، يركضون ، يتلاطمون ، يتعثرون فيسقطون ، يصيحون ، يستغيثون ، القرد ينقلب قوة عمياء مدمرة تجتاح الحارة ، يلوذ الناس بالأزقة الجانبية ، تغلق الدكاكين ، تتحطم الكراسى والسلع وتنقلب السلال والمقاطف ..

وتتدفق قوات الشرطة على الحارة . يذهل الضابط عندما يدرك أن المعتدى ما هو إلا شحاذ ضرير ، ثم يأمر بإلقاء القبض عليه ..

وتتجدد المعركة بين القرد والجنود ، يخوضها الجنود عزلا من السلاح بأمر من الضابط ولكنهم لا يلبثون أن يتطايروا فى الهواء ، إنه قوة لا تغلب ..

ويتجمع الغلمان فى الأطراف ويشجعون القرد بهتاف صاخب . الحق أننى لم أر رجال الداخلية من قبل على حال من التعاسة كما أراهم الآن ، ويصيح الضابط من داخل بدلته البيضاء ذات الشريط الأحمر :

— يا قرد . ستضرب بالرصاص إن لم تسلم نفسك فى الحال . ولكن القرد يتمادى فى التحدى منتشيا بثوران القوة والنصر . ويرحمه الضابط فلا يأمر باستعمال هراوة أو بندقية ولكنه يستدعى بعض رجال المطافىء ..

ويتدفق الماء من الخرطوم كالشلال فينصب قوته التى لا مفر منها على القرد . يرتبك القرد ويتعثر ويدور حول نفسه مترنحا منهزما حانقا قاذفا بسيل من السباب المقذع ، ثم يتهاوى فوق اديم الأرض بلا حول .. فينقض عليه الجنود بالأغلال ..

ويغيب القرد عن حارتنا فترة من الزمن ، ولكنه يرجع ذات يوم ببنيانه الضخم ، وهامته المرفوعة فيلقى استقبالا حميما وتحيات

حارة .. فيواصل حياته السابقة متعملقا عند مدخل القبو مثل أسطورة ..

عرابى وسعد ....

انتقلت إلى العباسية . اشتبكت صورة الفتوة مع صورة الشجيع الذى رأيته فى السينما ، كنت أرى أفلام الشجيع فى سينما الكلوب المصرى وعمرى أربع سنوات ، سينما الكلوب أقدم سينما فى القاهرة تقريبا ، فى العباسية كنا نسكن فى حى متوسط لكنه يقع بين منطقتين شعبيتين .. الحسينية وكان لها فتوة ، والوايلى وكان له فتوة ، الأحياء الراقية طبقيا والتى كان من غير الممكن ظهور فتوة منها ، كانت تتبع فتوة أقرب حى شعبى ، يعنى العباسية مثلا كانت تتبع عرابى فتوة الحسينية ، ومصر الجديدة تقع فى نطاق فتوة الوايلى ، بدأنا نسمع عن عرابى الأساطير ، فى هذه الفترة رأيت اثنين من أعوانه ، وكان من الممكن تأجير بعضهم لضرب شخص معين أو ما يشابه ذلك ، وكنا نسمع عن مغامراتهم ، ويبدو أثرهم أيام الانتخابات ، طبعا أثرهم فى الثورة سنة ١٩١٩ كان معروفا ، قادوا المقاومة ضد الانجليز ، وفى الانتخابات كان تأثيرهم مماثلا ، عرابى هو الذى ضيع فرصة نجاح سليم بك والد كمال سليم المخرج السينمائى ، مع أن عرابى كان وفديا وسليم بك وفدى أيضا ، ولكن أسقطه لحساب وفدى آخر ، وهو عبد الحميد البنان ابن الحسينية ، كانت له سراى فى الحسينية نفسها ، سليم بك رشحه الوفد ، والبنان رشح نفسه على مبادىء الوفد ، سليم شكا من حى الحسينية والجمالية لانحيازهما إلى البنان ، سمعنا أن سعد زغلول قرر أن يذهب بنفسه إلى سراى سليم بك لمساندته ، جاء موكب سعد زغلول واخترق الحسينية ، كان يوما لا مثيل له ، عند رأس الحسينية كان عرابى وعصابته فى انتظار موكب سعد زغلول ، بمجرد ظهور الموكب علت صيحاتهم ، يحيا سعد ، ومبالغة فى الاكرام ، شالوا الاتوموبيل ودخلوا به سراى البنان ، الخبر مشى فى العباسية زى النار ، سعد زغلول فى سراى البنان .. سليم بك خسر تأمينه ولم تقم له قائمة ..

الأتــوبيــس ....

... فى العشرينات بدأت شركة الأتوبيس فى تسيير خط يمر بالحسينية ، ولكن سرعان ما حدثت متاعب ، إذ أن صبية عرابى كانوا يتصدون للركاب والأتوبيسات ، كان من الممكن أن تكون جالسا فى العربة وتفاجأ بأحدهم قد صفعك على قفاك ، حارت الشركة ، ماذا تفعل ؟ أخيرا لجأت إلى عرابى ، وتم تعيين عدد من الصبية كمسارية فى الشركة ، أو عمالا يرتدون الزى الأصفر ويمسكون الصفارات ، ويقفون فى الطريق لتأمين العربات والركاب ..

أما نهاية الفتوات ، فجاءت نتيجة لحادثة وقعت سنة ١٩٣٠ ، وسمعنا بها ونحن فى مصيف اسكندرية ، إذ حدث أن عرابى ضرب ضابطا انجليزيا ، وجرده من ثيابه تماما ، وذهب الضابط عاريا كما ولدته أمه إلى الداخلية ، وسرعان ما تم تجريد قوة قبضت على عرابى ، وضربوه فى الداخلية ضربا مفزعا ، كسر الرجل وأنهى سطوته ، وتحول عرابى من رجل كان يحمى مأمور قسم الظاهر إلى رجل يمكن اعتقاله فى أى لحظة لو شكاه أى إنسان ، مجرد شكوى صغيرة ، ظل عرابى طول عمره تحت المراقبة ، هل تذكر المقهى الذى كنا نلتقى فيه مساء كل خميس ، كان اسمه مقهى عطية مع أن صاحبه فى الأصل عرابى ، لأن عرابى لم يكن يستطيع أن يضع اسمه على أى شىء ، أحيانا كانت تعاوده العنجهية فيهب فى الزبائن ، وسرعان ما يمضى إليهم ويطلب الصفح ، فى أيام انكساره تلك رأيته ، أنت لم تره ، لأنك بدأت تزورنى بعد وفاته ، كان منظره جليلا ، يشبه زعيم حزب ، أو قائدا كبيرا ، شخصية ! ، وكان شهما جدا ، وشخصيته جذابة ، فارس ..

... وفى الأدب ، كتب عن الفتوة الواقعى قصة قصيرة واحدة ،

لم أضمها إلى أى مجموعات قصصية ، نشرت فى الثلاثينات ، استخدامى للفتوة بعد ذلك يشبه استخدامى للحارة ، يعنى فى أولاد حارتنا كان الفتوات رمز القوة الغاشمة ، فى الحرافيش مثل الحكام ، الظالمين ، والصالحين استخدام رمزى ، فى قصة « الرجل الثانى » يشبه الفتوة القدر ، فى الحارة ستجد شخصيات تقليدية لها دلالة ، مثل الفتوة ، والمؤذن ، وشيخ الحارة ، وكما عرفت الفتوات من الرجال ، فقد عرفت فتوات من النساء ، شفت فتواية ، أنا أول من قدم إحداهن فى الفيلم المصرى ، كانت بائعة فراخ فى الحسينية ، الفتواية التى شفتها كانت ذات قوة مهولة ، بضربة ذراع تطيح برجل جامد ، أنا شفت نساء يتشاجرن ، أذكر خناقة نسائية فى محطة الرمل ، ربطن الملاءة حول خصورهن ، ودخلن ضرب فى بعض ، وقف الميدان على رجل ، لكن هذا ليس من علامات الفتواية ، الأخرى امرأة يرتعش أمامها أى رجل ، المرأة المعلمة تعتبر درجة أقل ، الظروف ربما دفعتها إلى السوق ، ولكن الفتواية التى أذكرها كانت شيئا مهولا ..

المقاهى ....

... المقهى يلعب دورا كبيرا فى رواياتى ، وقبل ذلك فى حياتنا كلنا ، لم يكن هناك نواد ، المقهى هو محور الصداقة ، البيوت لا تسمح بالزيطة ، فى البداية اتسع لنا الشارع ، حتى تجرأنا على المقهى ، عرفت المقهى فى سن مبكرة منذ أوائل الثانوى بفضل سيد الشماع صديقنا فى الغورية ، كان لنا مقهى فى الدراسة ، فى كل حتة ، لكن أشهر مقهى جلسنا فيه الفيشاوى ثم عرابى ومقهى زقاق المدق ، والفردوس وركس ، ولونا بارك ، لونا بارك افتتحناها ، أول ناس دخلوها أثناء الفتح ، كان فيها شيشة معتبرة ، كنا نشرب الشيشة ، ونحتسى بعض كؤوس الويسكى ، ونستمع إلى أم كلثوم ، آه .. ذكرتنى بمقهى أحمد عبده الذى ذكرته فى الثلاثية ، وكان كمال يلتقى فيه بصديقه فؤاد الحمزاوى ، هذا المقهى كنت أحبه ، كان تحت الأرض ، تنزل سلم ، تجد دائرة ، فى الوسط فسقية ، وتحيطها مقاصير صغيرة ،

ومشهورة بالشاى ، أحسن شاى ، الحقيقة أنا سميتها قهوة أحمد عبده ، لا أذكر اسمها الحقيقى ، ألم يحدثك عنها أحد من أهالى الحسين ؟ آه .. نسيها الناس إذن ، هدمت منذ سنوات بعيدة ، كان مقهى جميلا وكان أحب المقاهى إلى نفسى ..

ميلاد الكرنك ....

... آه .. طبعا أذكر اللحظة ، فى هذه الجلسة ولدت رواية الكرنك ، لم أر حمزة البسيونى إلا فى هذه المرة ، ثم قتل فى حادث بعد ذلك بأسبوعين ، كان جلوسى بمقهى الفيشاوى يوحى لى بالتفكير ، كل نفس شيشة كان يطلع بمنظر .. ، كان خيالى يصبح نشيطا جدا أثناء تدخين الشيشة ، كان معظم وقتى أقضيه فى الفيشاوى أيام العطلات ، المقهى عالم من الأنس ، ملتقى الأصحاب ، أما ندوة مقهى الأوبرا ، فبدأت عام ١٩٤٣ ، بدأت مع تكوين لجنة التأليف والترجمة والنشر ، كنا نجلس أولا بمقهى عرابى ، لكن شلة الأدباء الجدد لم تنسجم مع شلة عرابى من أصدقاء العباسية ، فانتقلنا إلى كازينو الأوبرا ، استمرينا فيه حتى طاردنا البوليس فى بداية الستينات ، أظن ١٩٦١ ، ١٩٦٢ ، التاريخ راح من ذهنى ، فيها عرفت عددا كبيرا من الأدباء ، جاء سلامة موسى ، ولويس عوض ، جاء وكان يعرض فكرة إنشاء مجلة ، كان يعتقد أن السحار بإمكانه أن يمول مجلة ، وجاء إلينا شكرى عياد ، وبدر الديب ، وفتحى غانم ، معظم أدباء الجيل التالى لنا ، فى الآخر أصبح فيها عمل ، كنا نقرأ فيها أعمالا أدبية ، وعندما قررت إنهاءها ، الضابط قال لى أرجوك أبق على الندوة .. إنها مفيدة لنا ، طبعا كانوا يكتبون منها التقارير ، المهم ان الندوة اكتشفت صدفة ، فى إحدى المرات كان موكب لعبد الناصر يمر فى الشارع ، لاحظ رجال الأمن ، أن عددا يصعدون إلى المقهى ، صعد أحدهم ، أطل ، فوجىء بعددنا ، عاد وأجرى تحقيقا سريعا ، أنتم منْ ؟ لماذا تجلسون هنا ؟ ، وقال : إن هذا إجتماع ، وطلب منا أن نأخذ إذنا من البوليس كل أسبوع وبدأ أحد رجال البوليس يحضر إلى الندوة ، كان يتتبع المناقشات الأدبية بدهشة ، ويصغى إلى أسماء مثل

كافكا ، وبروست ، ومصطلحات كالواقعية والمودرنيزم وخلافه ، طلب منى أن أساعده فى تلخيص ما يجرى ، يعنى بالعربى أكتب أنا محضر الجلسة للبوليس . ، لكن ذلك كان أمرا لا يطاق .. وانتهت الندوة .. بعدها انتقلنا إلى مقهى سفينكس أمام سينما راديو ، كنا فى البداية ثلاثة أصدقاء أو أربعة ، ثم بدأ توافد الأدباء ، فى هذا المقهى تعرفت إلى جيل الستينات ، المقاهى بالنسبة لى ذكريات لا تنتهى ، وكلها ذكريات غالية ترتبط بالأصحاب ، والشباب ، وأحلى أيام العمر ..

الاسكندرية أخيرا ..

الاسكندرية قطر الندى ، نفثة السحابة البيضاء ، مهبط الشعاع المغسول بماء السماء ، وقلب الذكريات المبللة بالشهد والدموع .

ميرامار

المـــــكان ..
.. اسكندرية .. وتوفيق الحكيم ..

.. الاسكندرية هى المكان الوحيد الذى أسافر إليه بانتظام خارج القاهرة ، بدأت علاقتى بالاسكندرية منذ انتقالنا إلى العباسية ، أول مرة ذهبت مع شقيقتى فى الصيف ، وفى مرحلة الدراسة الثانوية ، أعتدت الذهاب إلى الاسكندرية فى الأجازات الصيفية ، كما نجحت ، يكافئنى والدى فيعطينى عشرة جنيهات ، وكان هذا المبلغ يكفينى لمدة شهر كامل بالاضافة إلى ركوبى الدرجة الثانية فى القطار خلال الذهاب والاياب ، كان عمى يقول لوالدى أنت تفسده لأن نجيب عندما يتوظف لن يحصل على العشرة جنيهات ، مما أذكره أننا كنا نتناول الغداء ، بالمناسبة كان زميلى فى السفر صديقى إبراهيم فهمى من شلة العباسية ، أصبح فيما بعد من الضباط الأحرار ، ثم رئيسا لشركة ، كنا نتغدى عند حميدو ، فى هذا الوقت لم يكن الكورنيش قد بنى ، وكان فيه بلاجين فقط ، أما الشاطبى أوالأنفوشى ، كان حميدو عندما يجد مصيفين يترددون عليه يومياً .. يعتبرهم زبائنه ، كنا نطلب مثلا خضارا وأرزا أو سمكا ، ولأننا زبائن دائمون يقدم لنا طبقا هدية من المحل ، هل تعرف هذا عبارة عن إيه ؟ عبارة عن سمكتى بورى من الحجم الكبير ، أذكر أننى دخلت مطعما ألمانيا فى الاسكندرية ، مطعم فخم جدا ، كان فسيحا ومن طابقين ، مكانه الآن معرض عمر أفندى فى شارع صلاح سالم ، وكان المطعم فيه جرسونات

يرتدون أزياء مهيبة ، جلست ، فوجئت بأربعة ، واحد وضع أمامى الطبق ، الثانى وضع الفوطة ، الثالث قدم إلىّ قائمة الطعام ، الرابع ...... ، عندما وجدت هذا الاحتفاء ، انتهزت فرصة إبتعادهم عنى وانسحبت ، خرجت بسرعة إلى الشارع ، كانت الأكلة ستكلفنى جنيها فى وقت كنت أقضى فيه شهرا كاملا بعشرة جنيهات ، لهذا جريت .

بيترو ....

.. لم أنقطع عن الاسكندرية أبدا منذ ذلك الحين إلا فى أيام الحرب العالمية الثانية ، لم يكن أحد يغامر بالذهاب ، كان لنا فرع من عائلتنا فى أحد أحياء الاسكندرية ، قصف الحى بالقنابل ، ومات كل أفراد العائلة أو بمعنى آخر ، أبيد هذا الفرع منا ، عدت إلى الاسكندرية فى أول سنة بعد الحرب ، وكان يصحبنى عادل كامل ومحمد عفيفى ، وكنت خلال سنوات الحرب أقضى وقت الأجازة بمقاهى القاهرة ، تسألنى عن بيترو ، المقهى الجميل الذى كنت أرتاده فى الاسكندرية ، للأسف هدم الآن ، أزيل فى العام قبل الماضى ، تعرفت بالاستاذ توفيق الحكيم سنة ١٩٤٧ بعد صدور زقاق المدق ، الأستاذ محمد متولى الذى كان مديرا للأوبرا قال لى إن الأستاذ توفيق الحكيم يريد أن يلتقى بك ، إنه يقعد فى المقهى المواجه للبنك الأهلى ، ربما كان هذا سنة ١٩٤٨ ، رحت قابلته ، سألنى .. أنت بتروح اسكندرية ؟ قلت نعم ، قال لى إنه يقعد بمقهى فى سيدى بشر ، فى هذه الفترة كانت الحساسية فى عينى قد اشتدت ، كان أصحابى ينزلون البحر وأنا أبقى على الشاطىء ، أثناء اتجاهى إلى الأستاذ توفيق الحكيم شفت مقهى بيترو ، كان المقهى الآخر مطلا على الرصيف مباشرة ، عرضة لازعاج المارة ، قلت له ، أنا شفت مقهى هادئا ومعزولا ، تستطيع أن تخلو فيه إلى نفسك أنت وأصحابك ، والمقهى قريب ، منذ ذلك الحين بدأ جلوسنا بمقهى بيترو ، أنا الذى اكتشفت بيترو ، وبعد أن قامت الثورة ظهر الباشوات فى المقهى وشفتهم فى حالة الخوف الشديد التى كانوا عليها ، من

الذكريات الطريفة أن أحدهم كان فى حاله ، فيه شخص دمه خفيف كان يتكلم عن فيلم بينما الباشا سارح بنظره فى البحر ، قال هذا الشخص « .. دا حتى من رأى سعادة الباشا .. » الكلام عن الفيلم . لكن الباشا فزع فجأة وصاح ، « أنا ماليش رأى ولا بتكلم فى السياسة » قال له « دا احنا بنتكلم فى الفيلم » الباشا قال له « أنا عارف موضوعه إيه .. أنا ماليش دعوة » .. ، كان هناك باشا آخر ، المرجوشى طول عمره تاجر ، قبل الثورة بشهور صفى تجارته ، وقال إنه أكتفى بالتجارة ، وأن أولاده تخرجوا من الجامعات وأنه يحب الريف ، باع كل شىء واشترى خمسمائة فدان ، قامت الثورة ، أممت العزبة بعد تحديد الملكية ، طبعا أنت تعرف أن الثورة لم تمس التجار .. ، حظ .. لم يكن المرجوشى زراعيا ولا فلاحا ، طول عمره تاجر ، بدأت علاقتى بتوفيق الحكيم من هنا ، طبعا هو حديثه ممتع جدا ، وكثيرا ما أكون مستمعا إليه ...

الخـــارج ....

.. فيما عدا الاسكندرية التى أسافر إليها بانتظام ، لم أسافر إلى الخارج إلا مرتين ، مرة إلى يوغسلافيا ، ومرة إلى اليمن ، إننى أكره السفر بطبيعتى ، ولكننى استمتعت بالرحلتين ، وحتى الآن أحن إلى المناظر التى رأيتها سواء فى يوغسلافيا ، أو اليمن ، لم أكتئب هناك . بالعكس ، استمتعت ، علاقتى بالسفر غريبة ، إذا قلت لى سافر ، فكل شىء يضطرب ، كأنك طربقت الدنيا فوق دماغى ، ولكن إذا سافرت أستمتع حقيقة ، لم أكن أضيق بالسفر فى صدر شبابى ، والدليل على ذلك أننى رشحت لبعثتين ، بعثة لدراسة الفلسفة ، وأخرى لدراسة اللغة ، قل إن بعثة الفلسفة ربما غيرت حياتى ، لكن بعثة اللغة كانت ستفيدنى بلا شك ، كنت سأدرس اللغة الفرنسية بعمق ، وكنت سأرجع مدرسا بالجامعة بدلا من الوظيفة ، وكنت سأنتهز فرصة وجودى فى باريس لأدرس الأدب والفن ، لم أكن كارها للسفر ، ربما كانت كراهيتى للسفر الآن جاءت من عدم المرونة نتيجة للنظام

الذى أخذت به نفسى منذ تفرغت للأدب ، السفر يكسر هذا النظام ، كنت أتمنى أن أشوف هذه الدنيا ، طبعا أنت تعرف لماذا حرمت من البعثتين .. كان الفائز الأول والثالث قبطيين ، وكان ترتيبى الثانى ، ظنوا أننى قبطى أيضا بسبب أن إسمى نجيب محفوظ ، واستكثرت اللجنة سفر ثلاثة أقباط ، وهكذا حرمت من رؤية الدنيا ... ، فى الاسكندرية كنا نسهر مع الشلة ، فى الصباح يذهب أصدقائى إلى البحر ، وأمشى أنا على الشاطىء إلى الابراهيمية ، وفى اليوم الثالث أمشى من الابراهيمية إلى كليوباترة .. وهكذا ، واستمر هذا حتى تعرفت بتوفيق الحكيم ..

ملحـوظـة :

معظم روايات نجيب محفوظ تدور أحداثها فى القاهرة ، لا يمتد المكان خارج القاهرة إلا فيما ندر ، ولكن هناك مكان آخر يبدو قويا ، وبنفس درجة الحضور ، إنه الاسكندرية ، خاصة فى « ميرامار » و «السمان والخريف » ، وبعض القصص القصيرة ، وهناك قصة قصيرة واحدة تجرى أحداثها خارج مصر كتبها نجيب محفوظ بعد عودته من اليمن ..

روض الفـرج ..
وأم كلثـوم ....

... نعم ، يظهر روض الفرج كمكان له ملامحه الخاصة فى عدد كبير من أعمالى ، أذكر أن والدى صحبنى إليه ، كان هناك عدد كبير من المسارح تعيد الموسم كله ، يعنى تجد مسرحا يقلد الكسار ، وآخر يقلد الريحانى ، كله مقلدين ، كل روايات الريحانى القديمة شفناها بواسطة ناس آخرين ، طبعا كان هناك مسارح راقصة ، وفرق فنية ، أما أم كلثوم فلم أسمعها فى البداية هناك ، سمعناها فى اسطوانات سنة ١٩٢٦ ، تصور أننى تشاجرت مرة مع واحد لانه قال إن أم كلثوم أحسن من منيرة المهدية ، كنت من عشاق منيرة المهدية ..

ملحوظة :

كتب نجيب محفوظ فى جريدة الأيام فى ٢١ ديسمبر ١٩٤٣ مقالا عن أم كلثوم قال فيه :

« وما من جمود مثل أن تقارن أى صوت من الأصوات المصرية بهذا الصوت المتعالى فقل فى غناء اسمهان وليلى مراد ونور الهدى ما تشاء إلا أن تقارنه بصوت أم كلثوم فتضره من حيث أردت أن تنفعه وتهينه من حيث أردت أن تكرمه وتمرغه فى التراب وقد أردت أن تسمو به للسماء » ..



وبمناسبة أم كلثوم فإننى أميل إلى الموسيقى الشرقية ، تربيت عليها ، وكان لدينا فونغراف فى بيتنا بالجمالية ، حفظت وأنا صغير فى بيت القاضى أغانى سيد درويش من الشوارع ، لم يكن هناك راديو أو اسطوانات لكننى حفظتها بدون أن أعرف صاحبها حتى تقدم بى العمر وسمعتها فى الاذاعة ، كانت مفاجأة لى .. الله دا أنا كنت باغنى الحاجات دى ، درست الموسيقى الكلاسيك من الكتب ، وكنت أحضر السهرات التى تقيمها الفرق الزائرة ، أما عن حبى لآلة القانون ، فلأنه أحب الآلات إلى نفسى ، كان التخت زمان محصورا جدا ، عواد وكمنجاتى ، ورقاق ، وقانون ، كنت أفضل هذه الآلة ، ودخلت معهد الموسيقى ، تعلمت لمدة سنة ، كنت فى الجامعة ، وكان لا يوجد امتحان بين السنة الثالثة والرابعة ، فى هذه السنة دخلت المعهد ، وكنت أدرس فلسفة الجمال ، وظننت أن هذا المعهد يدرس الفلسفة الجمالية فى الموسيقى ، الفن التشكيلى عرفته من الكتب ، لكن الموسيقى كيف أعرف الجانب الجمالى فيها ، قلت سأجده هنا .. فى المعهد .. وطبعا لم أجده ..

السينما .. أثمرت فى سنوات اليأس الأدبى ...

... السينما دخلت حياتى من الخارج ، لم أكن أعرف عنها شيئا ، نعم كنت أحب أن أشوف سينما ، لكن كيف يعد هذا الفيلم ؟ لا أدرى .. كل ما أعرفه أن هذا الفيلم لرودلف فالنتينو ، لمارى بيكفورد .. إلخ ، لا أعرف أن هناك كاتب سيناريو أو غيره ، فى سنة ١٩٤٧ ، صديقى فؤاد نويرة قال لى : صلاح أبو سيف المخرج عاوز يقابلك ، فى هذه الفترة كانت لى عدة روايات آخرها زقاق المدق ، رحت مع فؤاد ، كنا فى الصيف ، قابلنا صلاح أبو سيف فى شركة تلحمى السينمائية ، قال لى الواقع أنا قرأت لك عبث الأقدار وتبينت منها أنك من الممكن أن تكون كاتب سيناريو كويس ، قال لى : إنه لديه قصة عنترة وعبلة ، قلت له : أنا ليس لدى أى فكرة عن الموضوع ، قال : معلهش ستعرف السيناريو ، فؤاد شجعنى على قبول العرض ، بدأ أبوسيف يطلب منى حاجة ، حاجة ، مثلا ، يقول لى ، موضوع عنترة وعبلة كذا أو كذا ، اكتبه لنا فى عشر صفحات ، أكتب القصة ، أذهب لتسليمها وأنا أظن أن مهمتى انتهت ، يقرأها ، يوافقون ، وإذا به يقول لى ، لا .. نحن لم نبدأ بعد .. إن هذه هى فكرة الموضوع ، نريد تحويله إلى سيناريو ، تخيل الفيلم ، أى نقطة سنبدأ بها ؟ ويبدأ يشرح لى الموضوع ، وأنا أطبق ذلك عمليا ، بعد المعالجة ، علمنى تقسيم المناظر ، وبعد أن قرأ نتيجة عملى أهدى لى كتبا فى فن السينما ، واشتريت أنا بعض الكتب الأخرى . حقيقة ، تعلمت السيناريو على يدى صلاح أبو سيف .. ، المهم أنه طلب منى أن أعمل معه باستمرار ، لكننى اعتذرت لاننى متفرغ للأدب ، قال لى : إنه يعمل فى الصيف فقط ، وقال لى .. إذا كانت حساسية عينيك تعوقك ، يمكنك أن تملى على كمال عطية ، بدأت أكتب سيناريوهات ، أما أن أكتب القصة والسيناريو ، أو أعد السيناريو لقصة ، أودّ أن أقول لك ان السيناريو كتبته فى الفترات التى كنت أتوقف خلالها عن الكتابة الأدبية ،

ولو أنه عطلنى لحظة واحدة لتركته بدون تردد ، كثيرا ما طلب منى مخرجون آخرون ، أن أعمل معهم لكننى اعتذرت ، صلاح أبوسيف كان مقلاً ، كان يعمل فيلماً فى السنة ، كان مريحا معى ، لم أعمل باندماج إلا فى سنوات اليأس الأدبى التى تلت كتابة الثلاثية ، ذهبت وسجلت نفسى فى النقابة ، وأصبحت أعمل مع أى مخرج ، توقفت عن كتابة السيناريو مرة أخرى عندما عينت مديرا للرقابة ، وكنت متعاقدا على سبعة سيناريوهات ، كان ذلك فى ١٩٥٩ ، الحقيقة أننى لم أكن سعيدا بكتابة السيناريو ، أنت كروائى رب عملك ، ولكن هذا نوع من الخلق الجماعى ، تقول يمين ، تجد من يقول لك شمال أحسن ، بعض هذه الآراء تكون وجيهة فنيا ، آخر يبدى آراء من وجهة نظر تجارية ، واحد يبدى رأيا لأنه يحب الممثلة ، لم أكن سعيدا بهذه العملية ، ترك السيناريو بعد النجاح فيه تضحية لا مثيل لها ، تضحية مادية طبعا ، مجموع ما أنتجته حوالى ثلاثين فيلما ..

السينما والتركيز ....

... الغريب أننى كتبت هذا العدد كله من الأفلام ، وقصصى لم تجد من ينتجها ، كنت أجد من يقول لى إنها صعبة ، حتى أعد أحمد عباس صالح رواية « بداية ونهاية » لاذاعة صوت العرب ، وعندئذ التفت إليها أهل السينما وقالوا هاتوا الرواية .. الله ، طيب ما الرواية دى .. موجودة من الأول .. ثم أنتجت كل الروايات ونجحت ، أول فيلم أعد لى « بداية ونهاية » .. ، نعم أوافقك على ما تقوله ، بالفعل المسلسلات التليفزيونية تمثل اليوم بالنسبة للأديب إغراء كبيرا ، المسلسل يساوى ثروة ، وكانت السيناريوهات فى الخمسينات تمثل إغراء ضخما ، لكننى لم أكتب سيناريو إلا فى الوقت الذى كنت غير مشغول فيه بالأدب ، أو خلال فترة اليأس التى حدثتك عنها ، كثيرا ما رفضت عروضا مغرية ، ولولا أن ظروفى فى العمل مع صلاح أبو سيف كانت ملائمة لى لما دخلت هذا المجال أبدا ، ومما لا شك فيه ، بالقطع أننى لم أكتب أى شىء فى حياتى وعينى على السينما ،

لم يحدث هذا إطلاقا ، الأدب أدب ، والدليل ان الروايات التى تحولت إلى أفلام ، تحولت بصعوبة ومعجزة ، هل ممكن لمؤلف أن يكتب ثرثرة فوق النيل وعينه على السينما ؟ لا بالقطع ، لكن السينما تؤثر من ناحية أخرى ، الإيقاع السريع ، التركيز . وهذا تأثير عام للسينما فى الأدب ، إننى أتساءل ، لماذا اتجهت إلى التركيز بعد الاسهاب ، هناك جملة أسباب ، على رأسها الزمن وإيقاعه ، يعنى لو أنا فى عمر مناسب ، لا يمكننى كتابة الثلاثية الآن مع هذا الإيقاع ، وتلك الظروف المحيطة بنا الآن ، أضف إلى ذلك تأثير السينما والتليفزيون ، وما يتميزان به من تركيز ، وهذا يؤثر فى أذواق الناس ، وبالتالى فإن القراءة تتأثر أيضا . إن الجملة التى تغنى عن صفحة هى الأفضل الآن ، فضلا عن ذلك فإن أدبى كان طبيعيا ، وأصبح الآن فكريا ، والفكر لا يحتاج إلى إسهاب ، كل العوامل أدت إلى التركيز ، أفادتنى السينما فى التركيز ، فيه ناس يقولون إن المونتاج أخذه الأدب من السينما ، لكن هذا غير صحيح ، إنه فى الأدب قبل أن يكون فى السينما ، كذلك الرجوع إلى الماضى ، على أية حال فإن الفنون تؤثر فى بعضها ..

... لا .. لم تمثل السينما إغرء ماديا فى أى يوم من الأيام ، سأقول لك ما هو أكثر ، الأستاذ مصطفى أمين أهدانى آخر كتاب له وقد صدره بإهداء قال فيه « إلى الكاتب الذى أردته أن يكتب يوما فى أخبار اليوم فرفض » ، ولهذا الإهداء قصة ، إذ كنت موظفا فى الأوقاف سنة ١٩٤٤ ، كان مرتبى ثمانية جنيهات ، أرسل إلىّ مع إحدى قريباتى التى كانت تعمل فى أخبار اليوم ، وطلب منى أن أكتب قصتين فى الشهر مقابل خمسة عشر جنيها ، كنت فى أشد فترات حياتى إرهاقا من الناحية المادية ، مرتبى ضئيل ، مسئول عن البيت بعد وفاة الوالدة ، كان إغراء ماديا قويا ، خاصة أنهم لم يطلبوا قصة قصيرة ذات مواصفات معينة ، رفضت . لماذا ؟ لأننى لم أكتب القصة القصيرة بدافع كتابة القصة القصيرة إلا فى الستينات بعد « أولاد حارتنا » ، وكنت فى هذه الفترة مشغولا بكتابة الرواية . الأستاذ مصطفى أمين لم يصدق أننى رفضت العرض لرغبتى فى التفرغ إلى الرواية ، ففسر الأمر على أننى وفدى ، وأخبار اليوم كانت تهاجم النحاس،

وقتئذ .. لم أعرف بهذا التفسير إلا منذ شهر عن طريق صديقى محمد عفيفى ..

ملحوظة :

الطريف أننى سألت مصطفى أمين فى هذه الواقعة فذكر أنه قرأ لنجيب محفوظ عام ١٩٤٣ ، وأن رواياته لفتت نظره ، فأرسل إليه مع قريبة له كانت تعمل بأخبار اليوم يطلب منه أن يكتب قصتين فى الشهر ، أن يكتب بالتبادل مع توفيق الحكيم ، وكان الحكيم إسما كبيرا فى هذا الوقت . ويتقاضى أربعين جنيها فى الأسبوع الواحد . وعندئذ اقترح مكافأة لنجيب محفوظ عشرين جنيها فى القصة الواحدة . لأن اسم نجيب محفوظ لم يكن ذائع الصيت كتوفيق الحكيم . وهكذا يكون المبلغ الذى عرض على نجيب محفوظ أربعين جنيها . وليس خمسة عشر جنيها . أيهما نسى ؟

هل نسى نجيب محفوظ الرقم مع الزمن ؟

أم أن الوسيط لم يبلغ الرقم الحقيقى إلى نجيب محفوظ ؟



... رفضت العرض لأنه كان سيعطلنى عن الرواية ، أما القصة القصيرة التى نشرتها قبل ذلك فقد كان معظمها قصصا قصيرة عبارة عن ملخصات لروايات قديمة لم تنشر ، أما القصة القصيرة فلم أكتبها نتيجة رغبة حقيقية إلا فى الستينات .. لم أضح بأى شىء يعطلنى عن الأدب ، ولهذا فإن السينما لم تجرفنى قط بعيدا عن الأدب ، ولم أوقف كتابة عمل أدبى لأكتب سيناريو أو أى شىء آخر .. لم يكن هناك أى شىء يعطلنى عن الأدب ، عن الكتابة ..

توقف ....

... حدث ان توقفت مرتين فى حياتى عن الكتابة ، المرة الأولى سنة ١٩٥٢ ، بعد الثلاثية ، كان لدى موضوعات لا ينقصها إلا الكتابة ، وماتت الرغبة ، المرة الثانية بعد الخامس من يونيو ١٩٦٧ ، رغبة وانفعال شديد ، ولا موضوعات ، لهذا كنت أبدأ من الصفر ولا أدرى كيف سأنتهى ..

لماذا هذا الموت فى كلتا الحالتين ؟

كنت دائما أقول تفسيرا لمن يسألنى عن الفترة الأولى ، كنت أقول ان الثورة حققت الأهداف ، وأن المجتمع لم تعد فيه القضايا التى تستفزنى ، كان سببا يبعد عنى الشبهات ، خاصة أن السؤال حول أسباب التوقف له جانب سياسى ، بدا لى أن إجابتى هذه سبب معقول ، لكن هل هذا حقيقى ؟ إنه مجرد تفسير .. الحقيقى إننى توقفت أربع أو خمس سنوات ، ما هى الاسباب ، لا يمكن أن أقول وأنا فى راحة ضمير ، ما هى الأسباب ؟ لا أستطيع التفسير ، مرة أخرى توقفت بعد اكتوبر ١٩٧٣ ، لمدة سنة ، ولكننى استأنفت العمل .. بعد فترة توقفى الأولى لم أكتب أى أدب ، ولا حتى قصة قصيرة ، وعندما استأنفت الكتابة بدأت فى « أولاد حارتنا » ، لكننى أعود فأتساءل عن سبب التوقف ، ربما كانت الثلاثية هى السبب ، إذ يمكن القول أننى أشبعت من خلالها رؤيتى ، ولكننى لا أستطيع الجزم بذلك ، خاصة أنه كان لدى سبعة موضوعات ، أذكر أننى عرضتها مرة على عبد الرحمن الشرقاوى عندما كنت أعمل موظفا فى مصلحة الفنون ، وأعجبه موضوع كان عن العتبة الخضراء ، لقد ظننت أننى انتهيت وقتئذ ، وخاصة أن لكل كاتب عمرا فنيا ، رامبو توقف وهو عنده أثنان وعشرين سنة ، قلت أشوف شيئا آخر ، وكان السيناريو عزاء محدودا ، وشغل الوقت مع السينمائيين ، لكن هذا كله لم يغرنى عن الأدب ، كنت فى أسوأ حالات عمرى ، لدرجة أننى كنت أشتهى الموت !

أول قصص قصيرة أكتبها برغبة ....

« دنيا الله » تضم أول قصص قصيرة كتبتها فى حياتى برغبة ، رغبة فى كتابة القصة القصيرة ، كثير منها عن الموت ، الحقيقة أننى لم أنتصر على فكرة الموت إلا بعد أن كتبت عنه ، لا شىء يحررك من حاجة معينة مسيطرة عليك إلا الكتابة ، أوافقك أيضا على أن الإنسان حين يفكر كثيرا فى الموت فإن هناك موضوعا آخر يكون مسيطرا عليه ، أو أزمة كبرى يمر بها ..

النقد ....

... أول من كتب عنى سيد قطب ، وأنور المعداوى ، كان هذا أول ما يكتب عنى فى عام ١٩٤٨ و ١٩٤٩، منذ أن بدأت الكتابة عام ١٩٢٩ ، بعد ذلك تعرضت لهجوم منتظم فى جريدة الجمهورية ، الحقيقة لا أدرى سببه ، بعد ذلك تغيرت الآراء ، أصبحت أديبا اشتراكيا ، الأدب البورجوازى أصبح اشتراكيا ، وبعد رواية الكرنك أصبح أدبى رجعيا ، على أية حال ، أنا لى رأى فى النقد ، كما يكون الأديب حرا ، فإن الناقد هو الآخر حر ، الناقد يكتب طبقا لوجهة نظره ، والكتاب لا تتم دراسته إلا إذا انعكست فيه جميع الآراء ، لكن هناك أساس هو النقد الفنى ، مثلا .. كأنى أقول لك هذه الساعة من الذهب ، تقول لى ، إن لبسها حرام .. قد يصح هذا أو لكن قبل ذلك ، عيارها كم ؟ جاءت فترة غلبت عليها السياسة ، والسياسيون محرومون من التعبير عن رأيهم السياسى ، فالشىء الذى كان لا يقال مباشرة كان يقال عن طريق النقد ، كذلك النقد الفنى صعب ، يحتاج إلى دراسة ، وذوق ، وجهد ، ولا يقدر عليه أى كاتب ، لكنّ النقد ذا المضمون السياسى سهل ..

... كان انفعالى بأول مقالة كتبت عنى كبيرا ، جاءت بعد صمت طويل ، أذكر أنها كانت لسيد قطب ، طبعا الصمت مؤلم ، لكن إذا حصرت نفسك

فى حب العمل فإن فى ذلك عزاء كبيرا ، يمكن القول ان النقد أفادنى ، لكنه يربك فى البداية ، على سبيل المثال كتبت زقاق المدق ببراءة تامة ، جاء أحد النقاد وكتب ان حميدة تعنى مصر ، كنت فى دهشة ، أحيانا يفتح النقد أبعادا كبيرة ، لكن كل اهتمامى كان فى البداية ، اليوم قد أجد مقالة فى مجلة أقرأها بسرعة ، فى البداية كان النقد ممكنا أن يفيد ، لكن الآن هل تنتظر من النقد أن يغيرنى ، أعتقد أنك غدا ستجرب ما أقوله ..

ما تبقى ....

... الآن أصبحت أعمالى الأدبية مستقلة عنى ، لم أقرأ رواية مرة أخرى ، ما هو إحساسى بالروايات الأولى ؟ لا أدرى ، الطبعات الجديدة تصحح فى المطبعة ولا أعرف بصدورها ، إلا آخر العام ، لكن إذا فكرت فى أعمالى الآن فسيقفز إلى ذهنى ـ كما قلت لك الثلاثية ، الحرافيش ، أولاد حارتنا وحكايات حارتنا ، نعم .. حكايات حارتنا ، تقول ان السبب ارتباطها بالطفولة ، ربما كان هذا صحيحا ، ولكن معظمها خلق بحت ، فيها حاجات بدأت فيها كأنه واحد سبور فى طياته ثم أفلتت منه ، أتفق معك ، ربما كانت تمهيدا للحرافيش ، « المرايا » بدأتها عدة بدايات ، خطر لى أن أكتب عن الناس الذين مروا بحياتى ولم يلحوا علىّ فنيا ، ثم جاءت فكرة أخرى ، أن أكتب عن الناس الذين عرفتهم بشكل واقعى ، كلا المشروعين لم يتما ، إذا التزمت بالحقيقة وجدت أن المحصول محدود جدا ، تحولت فى الكتابة إلى رواية ، مع أننى بدأتها بنية الكتابة عن أشخاص محدودين بشكل واقعى ، أحيانا يخيل إليك أنك تعرف كل شىء عن شخص معين ، وإذا قررت الكتابة عنه تجد أنك لا تعرف عنه شيئا ، لكن عندما يتعلق الأمر بالخلق توجد شخصيات مختلفة .. وجديدة !

الوظيفة ....

... دخلت الوظيفة سنة ١٩٤٣ ، وحدث انقسام حاد فى حياتى ، الوظيفة شىء ، والأدب شىء ، أحببت الوظيفة ، وكنت أنوى عند بلوغى السنة التى أستحق فيها معاشا كاملا أن أحيل نفسى إلى التقاعد ، لكننى عندما وصلت إلى هذا اليوم كانت المتطلبات المادية أكثر ، فبقيت فى الوظيفة حتى بلوغى السن القانونية ، منذ سنة ١٩٥٥ وحتى سنة ١٩٦٥ ، كان الأدب ممكنا أن يفى بحاجاتى المادية ، ولكن بعد انتشار ظاهرة تزوير الكتب فى الخارج أصبح ذلك مستحيلا ، رفضت دائما أن أتفرغ للعمل فى الصحافة خوفا من الضياع ، لأنه مجال مختلف عنى ولم أعد نفسى له ، لم تكن الوظيفة مملة ، كنت أتعامل يوميا مع العديد من الناس ، ونماذج لا حصر لها ، من أخصب فترات الوظيفة .. المرحلة التى عملت خلالها فى وزارة الأوقاف ، الأوقاف عدة وزارات فى بعض ، صحة ، زراعة ، دين ، كنت ترى المستحقين ، ونوعيات مختلفة بدءا من حفيد السلطان عبد الحميد إلى فلاح فقير له حصة فى وقف ، كان فيها حاجات عجيبة ، عاصرت الوظيفة فى أطوار مختلفة ، لم تكن هناك قوانين تحمى الموظف ، أول قانون عمله أمين عثمان فى وزارة النحاس سنة ١٩٤٢ ، عدا ذلك لم يكن يتقدم فى الحكومة إلا أوباشها ، كان هناك من يبيعون أعراضهم ، كنا نعرف أن مدير مكتب أحد الوزراء أعد شقة خاصة للوزير ، أضف إلى ذلك انتشار الشواذ ، يعنى نموذج محجوب عبد الدايم ، ورضوان بن ياسين فى الثلاثية كان منتشرا جدا ، كانت أياما شبيهة بأيام المماليك ، جهاز إدارى فاسد ، لكن بالنسبة لمسألة الرشاوى كان الحال أفضل من الآن ، كان فيه انضباط وادارة قوية ، فى إدارة الجامعة . مثلا كان فيه موظف واحد مرتش ، وكان معروفا ، طبعا مصادر الرشوة كانت اختصار الاجراءات ، نفس الاجراءات يمكن أن تستغرق شهرا أو تستغرق يوما ، والسبب صياغة معينة فى المذكرة ، مثل « أفيدونا عن

الشىء الفلانى » .. إلخ .. ، تعاقب الوزارات المختلفة كان يصبح له انعكاس على الوزارات ، الكبار يذهبون ، عامة الموظفين متفرجون ، كان هناك ترحيب دائما بوزارات الوفد ، لأنه جرت العادة على أن ينال صغار العاملين بعض الفائدة ، عندما نقلت إلى مكتبة الغورى كان ذلك بسبب تغيير وزارى ، كنت على صلة بأحد الوزراء ، لم تكن صلة عميقة ، وعندما حدث تغيير طلبوا منى أن أختار مكانا آخر ، طلبت النقل إلى قبة الغورى ، ظنوا أننى أحتج ، ولكننى قلت لهم إننى سأكون سعيدا جدا ، طبعا أنت تعرف أن القبة تضم مكتبة ضخمة ، فى هذه الفترة قرأت مارسيل بروست ، عملت أيضا فترة فى مشروع القرض الحسن ، فترة ممتعة ، كانت النساء يجئن ليرهن الحلى والمصاغ ، طوال النهار أتحدث وأرغى مع النساء القادمات من الحوارى ، والأحياء الشعبية .

استثناءات ....

... عندما التحقت بوزارة الأوقاف ، كان يزاملنى المرحوم كامل كيلانى ، حذرنى من إظهار نشاط أدبى ، طلب منى أن أخفى هويتى كمؤلف . قال لى إنهم لو عرفوا سيضطهدونك . لأننى عانيت من ذلك معاناة شديدة . أخفيت الأمر ، السبب أن بعض الوزراء كانوا يتولون الوزارة فيكرمون كامل الكيلانى . عندئذ تحدث ضجة فى الوزارة ، يقولون « إيه ده . هو كل واحد كتب كلمتين إنشاء يأخذ علاوة أو ترقية ، أمال فين المذكرات القانونية .. » لم يعترفوا إلا بهذا ، لكن تأليف الكتب لم يكن له مجال ، لهذا أرهقوا كامل الكيلانى ، كان معى محمد مصطفى الماحى الشاعر ، ومن قبلنا عمل العقاد فى وزارة الأوقاف ، استوحيت الكثير من الموظفين ، وعدد كبير منهم دخل فى رواية المرايا ..

ملحوظة :

راجع الفصول الخاصة بـ « ثريا رأفت » ، « شرارة النحال » ، « صبرى جاد » ، « صقر المنوفى » ، « طنطاوى اسماعيل » ، « عباس فوزى » ، « عدلى

لمؤذن » ، « عبد الرحمن شعبان » ، « عبده سليمان » ، « فتحى أنيس » ، « كاميليا زهران » ، « وداد رشدى » .

رواية « المرايا » ..

الحب الأول .. والكبير ....

« عايدة يا قضائى وقدرى .. » ولو لم أعرف عايدة لكنت إنسانا غير الانسان ، ولكان الكون غير الكون » .

كمال عبد الجواد ـ قصر الشوق

... خبا حبى الأول منذ زمن بعيد ، لا أستطيع تتبع أخبارها الآن ، لأنها ابنة عائلة اندثرت منذ مدة ، قصرهم أصبح عمارة ، كانت سراياهم فى شارع بالعباسية اسمه حسن عيد يصل بين شارع العباسية ، وشارع الملكة نازلى ، أصبح مكان السراى الآن عمارتين حديثتين ، لا أعرف مصيرها . أو أين هى الآن ، فى مصر ، خارج مصر ، حتى اخوتها انقطعت أخبارهم عنى ، فيه حاجات غريبة ، أحيانا يقولون إن الدنيا تلف وتدور ثم تشوف ، لكن هذه انقطعت أخبارها كلها عنى بالمرة ، الغريب أن البيت الصغير الذى أسكن فيه بالاسكندرية تعيش به قريبتها ، فى الطابق الذى يقع تحتى ، ابن عمها دكتور قابلنى تذكرنى ، لكن ليس من المعقول أن أسأله عنها ، معقول أن تكون ماتت ، معقول جدا ، لو أنها تعيش فهى الآن فوق الثمانين ، أظن انها تزوجت مهندسا ، قيل هذا فى الزمن البعيد ، لا أذكر ، بعد زواجها لم أرها إلا مرة واحدة فى ميدان الاسماعيلية ، واسمه الآن ميدان التحرير ، تمكن منى هذا الحب فى شبابى إلى حد كبير ، الغريب أنك تجد أحيانا وجها ما يخيل إليك أنك على موعد معه ، لماذا هذا الوجه بالذات ؟ لا أدرى ، لماذا هذا التكوين بهذا الشكل بالذات يؤثر فى الإنسان هذا التأثير بالذات ؟ أيضا لا أدرى ، هذا شىء غامض لا تفسير له عندى ..

ملحـوظـة :

نستعيد هنا فصل « صفاء الكاتب » من المرايا :

كان بيت الكاتب من أعرق البيوت فى العباسية القديمة . وكان يقع فى الحى الشرقى بمبناه الشامخ وحديقته المترامية ما بين محطتي ترام . وكثيرا ما سرنا بحذاء سوره ونحن فى طريقنا إلى الصحراء للعب الكرة ، فلم أر منه إلا رؤوس الأشجار وخمائل الياسمين والستائر المسدلة . وذات يوم وكنت ماضيا نحو الصحراء رأيت حنطورا ينحدر من الطريق الشرقى نحو الشارع العمومى . فى صدره جلست عجوز تلوح من وجهها عينان ناعستان فوق حافة اليشمك . وإلى جانبها فتاة تتألق بنور الشباب . وبمجرد أن وقعت عيناى على وجه الفتاة عانقت سرا من أسرار الحياة المتفجرة . تفتحت بها أبواب السماء فأغدقت على فيضا من بركان الحب . وقال شعراوى الفحام وكان أكثرنا خبرة بالحى الشرقى : ـ هى صفاء ابنة صاحب القصر . وقال خليل زكى وكان يسطو على حدائق الحى الشرقى كلما وجد غفلة ليخطف عنقود عنب أو ثمرة من المانجو :

ــ وهى فى العشرين من عمرها .

وعند ذاك همس جعفر خليل فى أذنى وقد لحظ تغيرى :

ــ أما أنت ففى الخامسة عشرة !

ومن عجب أن صورتها ـ رغم العاطفة التى ابتعثتها ـ اختفت تماما وراء سحب الماضى . بل تعذرت على الوضوح حتى وأنا فريسة لسحرها . لا أعرف لون شعرها ولا تسريحته ولا لون عينيها أو رسمها ولا طول قامتها أو درجة امتلائها . ذاب ذلك فى سائل سحرى ، وكنت إذا تذكرته ـ أو خيل إلىّ ذلك ـ فعن طريق غير مباشر وبإيحاء عفوى كشذا الورد الذى يباغتك من وراء سور وأنت ماض غارق فى أفكارك . وكأن قلبى لم يكن يحركه شىء إلا إذا انتمى إليها بسبب خفى . ولذلك همت فى أزمنة متأخرة نسبيا بقسمات وملامح وسمات ولفتات لنجوم توهمت أنها تذكرنى

بما غاب عنى منها ، بل ما أحببت صفة فى وجه إنسانى إلا كانت هى وراءه حقيقة أو وهما . وبسبب ذلك الحب الخاطف عانت حياتى العاطفية من أزمات متواصلة معقدة كأنها السحر الأسود . والعجيب أنه كان حبا بلا مواقع ولا مواقف ولا تاريخ يذكر . رأيتها فى الحنطور ثوانى ليس إلا ، ففقدت إرادتى ، وألقى بى فى طور جديد من أطوار الخلق .. وكنت قريب عهد بحب حنان مصطفى ، فأدركت خطئى وآمنت بأننى أحب لأول مرة . وعرفت كيف يغيب الإنسان وهو حاضر ، ويصحو وهو نائم ، كيف يفنى فى الوحدة وسط الزحام ويصادق الألم ، وينفذ إلى جذور النباتات وموجات الضوء . وجعلت أحوم حول سراى الكاتب وهو قصر مغلق النوافذ مدل الستائر لا يرى به انسى سوى البواب والبستانى وبعض الخدم . وسمعت مرة صوتا ناعما ينادى البواب ، فاهتز قلبى وافترضت فى الحال أنه صوتها ثم آمنت بذلك . ورأيتها للمرة الثانية فى مناسبة حزينة جدا . فى نافذة بيت أثرى بشارع محمد على احتشد فيه نفر من النساء لمشاهدة جنازة سعد زغلول . ولم أنتبه إليها عقب مرور النعش ، فرأيت من خلال دموعى وجهها المشرق وهى تجفف عينيها ، مادة عنقها وراء النعش المبارك . خفق قلبى خفقة مباغتة ولكننى لم أنعم بالرؤية وفقدت النشوة فى قلب كسير محزون . واجتاحتنى عواطف متناقضة كما اجتاحنى تيار الخلق الملاطم البلكى . لم أرها بعد ذلك إلا ساعة هبطت أدراج السلاملك فى ثوب العرس لتستقل سيارة إلى بيت العريس ، وكنت ضمن حشد وقف على الطوار المواجه للقصر للفرجة . وكانت مدة ذلك التاريخ الذى مر بلا أحداث عاما إلا قليلا ، ولكنه كان أعجب عام فى حياتى .

وانكشف أمرى لأصدقائى جميعا ، أما المهرجون فسخروا منى وأطلقوا علىّ « مجنون صفاء » ، وأما الآخرون فحذرونى من التمادى فى عاطفة لا جدوى منها البتة . وكنا صغارا وكانت

أفكارنا ساذجة مستعارة من الروايات وما عرفناه من تاريخ الأدب العربى . فقال لى سرور عبد الباقى :

— لا تستسلم وإلا جننت كمجنون ليلى ..

وقال لى رضا حمادة :

— إن حبك هذا يقطع بأنك أحببتها فى تاريخ سحيق مضى ، ربما فى عصر الفراعنة ، كما يقول ريد هجارد ..

وتمثل ذلك الحب فى صورة قوة طاغية متسلطة لا تقنع بأقل من التهام الروح والجسد . قذف بى فى جحيم الألم . وصهرنى ، وخلق منى معدنا جديدا تواقا إلى الوجود ، ينجذب إلى كل جميل وحقيقى فيه . وبقى الحب ـ بعد اختفاء خالقه ـ مالا يقل عن عشرة أعوام مشتعلا كجنون لا علاج له ، ثم استكن على مدى العمر فى أعماقى كقوة خامدة ـ ربما حركتها نغمة أو منظر أو ذكرى ، فتدب فيها حياة هادئة مؤقتة تقطع بأنه لم يدركه الفناء بعد . وكلما تذكرت تلك الأيام أذهلنى العجب ، وتساءلت بدهشة عن سر الحياة التى عشتها ، وهل كان أصابنى مس الجنون ، وأسفت غاية الأسف انه لم يقدر لحبى أن يخوض تجربته الواقعية ، وأن تتلاقى فى دوامته العنيفة السماء والأرض ، وأن أمتحن قدراتى الحقيقية فى معاناته ومواجهة أسراره على ضوء الواقع بكل خشونته . وما أحكم رضا حمادة حين قال لى يوما وقد بلغنا درجة من النضج والتجربة :

— صفاء القيت فى حياتك كمثير .. لم تكن إلا « شفرة » تشير إلى شىء ، تعين عليك أن تحل رموزها للوصول إليه ..

قلت له :

— لقد تحللت حياتنا إلى سخريات ، ولكنى أكره أن أذكر تلك الأيام باستخفاف ..

— استخفاف ؟ ! . كيف يستخف إنسان بأروع سنى العمر ؟ !

ومررت بقصر آل الكاتب فى الستينات فوجدته قد هدم ورفعت

أنقاضه ، مخلفا أرضا فضاء تحفر تمهيدا لإقامة أربع عمارات سكنية . ابتسمت وأنا أنظر إلى الأرض الفضاء ، وعبرنى إحساس بالأسى ، فتذكرت صفاء التى لم أرها منذ هبوطها فى ثوب العرس ، التى لم أدر عنها شيئا ، حية كانت أم ميتة ، سعيدة أم شقية ، وكيف غيرها الكبر بعد بلوغ السنين ؟ . وأيا كان خبرها ، ورأى الآخرين فيها ، ألم يكن من حقها أن تعرف أنها عبدت فى محراب كإله ، وأنها فجرت فى قلب حياة ما زالت تنتفض بين الحين والحين بذكراها ؟

★ ★ ★

... كتبت الكثير من أعمالى تحت تأثير حالة حب ، ليس من الضرورى وأنا أعيش التجربة ، لكن بعد مرورها ، وأعتقد أن الأديب يبدع أفضل ما عنده وهو يحب ، ولما كان حب المرأة غير متاح دائما ، فقد كان حب أى شىء محل حب المرأة ، إن التعبير عن تجربة حب بعد الانتهاء منها يظهر كل أبعادها ويبرئها من التحيز ، ويساعد على خلق عمل جديد .

... نعم ، عبرت فى قصصى عن كثير من المنحرفات ، البعض يستبشع هذا ، لكن ما هو موجود فى الواقع أفظع بكثير ، أعتبر رواياتى حشمة بالنسبة للواقع ، أعرف عن الواقع الاحصائى حقائق مخيفة ، ما عرفته بالمشاهدة بسيط لأنه لا يؤدى إلى الحقيقة بالضبط ، فى أحد الأيام تعرفت إلى ضابط بوليس بمكتب حماية الآداب ، كان شقيقه موزع أفلام ، جاء إلىّ فى ريش ، وبدأ يحكى عما يشاهده ، أشياء فظيعة ، الحياة الاجتماعية التحتية مرعبة ، لماذا نتجاهلها ، إن سبب معظم حالات الانحراف الحاجة ، معظمهن انحرفن نتيجة ظروف ساحقة ، إن حياة الانحراف كريهة ، إن لم تكن المرأة مصابة بانحراف فى عقلها فانها لا ترضى بهذه الحياة ، إن الرجال مسئولون فى معظم الأحيان عن انحراف المرأة ، إن المنحرفة فى القاهرة الجديدة عندما تضعها بجانب المسئول الكبير ، الوزير ، فإن المسئولية تقع على عاتق الوزير .

... عرفت النساء فى الأحياء الشعبية من المعايشة المباشرة ، يكفى جلوسى أمام بيتنا فى الجمالية ، كن يجئن إلى أمى ، إحداهن تبيع الفراخ ،

أخرى تكشف البخت ، دلالات ، منهن نساء واظبن على زيارتنا فى العباسية ، كنت أصغى إليهن فى أحاديثهن مع الوالدة ، وهن يروين لها الأخبار ، وعرفت نماذج عديدة منهن ظهرن فى رواياتى فيما بعد .

... بالنسبة لإشراك زوجتى فى قراءة أعمالى ، فإن المبدأ أوسع من ذلك ، يوجد كتاب تعودوا إشراك الآخرين فى عملية الإبداع الفنى ، بمعنى انه يعرض أعماله على زوجته أو شقيقه ، أو صديقه ، وإذا وجد مثل هذا المبدأ ، تصبح الزوجة لها الأولوية بالطبع ، خاصة إذا كانت لها اهتمامات أدبية ، وهناك كاتب يعتبر عمله سرا حتى يرى النور ، وأنا أنتمى إلى هذا النوع ، إذ أنه فى رأيي لا يوجد اثنان يمكن أن يتفقا فى الرأى حول عمل أدبى أو فنى .

... أرقب ابنتى ربما بدهشة ، أم كلثوم كان لديها استعداد للفن التشكيلى ، ظننت انها ستتجه إلى دراسة الرسم ، ولكن هذا لم يحدث ، لماذا لم تتخصص فى هوايتها الوحيدة ، بدلا من ذلك التحقت فى الجامعة الأمريكية ، أم كلثوم تبدو عصرية المظهر ، متدينة ، قبل أن تنام تقرأ فى القرآن ، عرفت مصادفة أنها تصلى ، إلى جانب ذلك تحب الغناء الافرنجى ، مرة دفعت ابنتى سنتين من عمرها بعد حصولها على الثانوية العامة نتيجة تدخلى ، كنت أود أن تلتحق بكلية الآداب ، قسم اللغة الانجليزية ، وكانت تريد أن تدخل الجامعة الأمريكية ، أصرت على الآداب ، لكنها لم تستطع الاستمرار بعد أن التحقت بها لمدة عام بالفعل ، قدمت فى الجامعة الأمريكية ، وكانت شروط الالتحاق قد أصبحت أصعب ، ثم اشترطوا عليها سنة لدراسة اللغة ، ابنتى الصغرى فاطمة تدرس السكرتارية فى الجامعة الأمريكية أيضا ، طبعا مزاجهما يختلف عنى ، هما تحبان الموسيقى الغربية ، أنا أحب الموسيقى الشرقية ، الغريب أنهما لمدة قريبة كانتا منطويتين ، من المدرسة إلى البيت ، ودائما معنا ، كان من المفروض أن يتشبعا بروحى ، لكنهما نقيضى فى كثير من الأشياء ، أتساءل من أين جاءتهما هذه المؤثرات على الرغم من انطوائيتهما ، وعدم الاختلاط بالخارج لمدة كبيرة ، فيهما نفس سمات الجيل ، الذوق الغنائى ، الاهتمام بالعالم ،

وليس بالواقع المحلى ، ولكننى سرعان ما أتذكر ، أننى نشأت فى بيت لا أحد يقرأ فيه ، ومع ذلك قرأت وعشقت الأدب ، هما أمامهما مكتبة ضخمة ، واسطوانات لا حصر لها لأم كلثوم ، لكن لا المكتبة تعنيهما ، ولا أم كلثوم ! ! حقا .. ولّى زماننا ، وهذا زمان مختلف ، زمان غيرنا !!

الزواج .. والأسـرة ....

... الحقيقة أن المرأة فى حياتى وأدبى شىء واحد ، لعبت المرأة فى حياتى دورا كبيرا ، إن لم يكن مثل السياسة فهو يفوقها ، أثر الوالدة فى التربية ، ونوع الثقافة التى منحتها لى ، على الرغم أنها لم تكن مثقفة ، ثم تجربة الحب الأول الذى سيطر على حياتى إلى درجة كبيرة ، وبعد ذلك تجارب حب ، يمكن أن تسميه ، « حب طياري » لكن كان له أثره الكبير فى تعرفى إلى عدد كبير من النساء والفتيات ، نماذج عجيبة وغريبة ، ظهرت فيما بعد فى أعمالى كلها ، ثم تجىء قصة زواجى الغريبة ، إذ أننى تزوجت بدون أى تخطيط ، وبعد فترة من الصراع ، هل أتزوج أم لا أتزوج ؟ تماما كالأزمة التى مررت بها فى الثلاثينات ، الأدب أم الفلسفة ؟ ثم حسمت الصراع بقرارى ، ألا أتزوج ، وكانت أمى تلح على فى الزواج ، رتبت لى مشاريع زواج عديدة ، زيجات معقولة ولا بأس بها ، وأرفض .. كيف تزوجت إذن ؟ كنت أعرف صديقا كما أعرفك ، وفى أحد الأيام يعرفنى بزوجته ، وأخت زوجته ، وأجد نفسى أتزوج شقيقة امرأته .. هكذا ! ، هكذا تم الزواج ، على الرغم من تعقيدات عديدة فى الأسرة ، حتى أن خبر زواجى لم يعرف به إلا عدد قليل من الأسرة ، أشفقت على الوالدة لأنها كانت تجهز لى ترتيبا مختلفا ، نفس أخى وأختى نصحانى بتكتم الخبر ، وكانا على علم بزواجى ، لقد أفضيت بزواجى إلى أمى على درجات حتى لا أحدث لها صدمة ، وهذا شىء على جانب كبير من الغرابة ..

فترة اليأس ....

... تزوجت فى عام ١٩٥٤ ، خلال توقفى عن كتابة الرواية فى فترة اليأس الأدبى ، تزوجت وأنا سيناريست أكتب للسينما ، من الممكن أن يكون الفراغ الذى كنت أعانيه قد لعب دورا كبيرا فى دفعى إلى الزواج ، وإلا .. ما الذى كان يخيفنى من الزواج قبل ذلك ؟ إنه الأدب ، وهذا تصور خاطىء ، وتفاصيله مكتوبة فى يومياتى التى كنت أدونها يوما بيوم ، ثم توقفت عن الاستمرار فى كتابتها ، وعندما أعود إلى قراءتها الآن ، أجد ما يدهشنى ، لم يكن تصورى صحيحا ، كنت أناقش نفسى فى يومياتى ، هل أتزوج أم لا ؟ وكنت أقول ان الزواج سيحطم حياتى الأدبية ، وانتهى الى قرار برفض الزواج ، فيما بعد ، بعد أن استعدت حياتى الأدبية استأنفت الكتابة . أعتقد أن حياتى الزوجية قد ساعدتنى ، وليس العكس .

الواجبات الاجتماعية ....

معروف أن الزواج يفرض نوعا من الواجبات الاجتماعية ، وهذا يؤدى إلى تبديد الوقت ، لكن زوجتى كان لها ظروف خاصة ، كانت أسرة زوجتى محدودة ، حتى شقيقتها وزوجها سافرا إلى ليبيا ، كان لها خال عجوز يعيش دائما فى البلدة ، ولا يجىء إلى مصر إلا نادرا ، كان ذلك بخلاف مشاريع الزواج الأخرى المعدة لى ، إذ أنها كانت تقع فى بؤرة علاقات اجتماعية متشابكة ، وكنت مضطرا فى حالة ارتباطى بعلاقة منها إلى تبديد وقتى فى المجاملات والزيارات ، أو أن أصبح مثيرا للاستنكار . كأن يقال مثلا « هذا زوج لا يزور .. ولا يحب الزيارة » إلى آخر هذه الأمثلة ، وكنت عندما أزور شقيقى إبراهيم ، أو أخى محمد ، أشوف إلى أى حد الحياة الزوجية حياة اجتماعية ، لا تسأل عن أحدهما يوما إلا وتجده فى حفلة شاى هنا ، أو عيد

ميلاد هناك ، ومثل هذه الأمثلة كانت تخيفنى من الزواج .. بالطبع طرأ تغيير على حياتى بعد الزواج بالنسبة لنظام عملى ، يوم الجمعة صباحا خصصته بأكمله للعائلة ، نخرج فيه إلى الحدائق ، فى الأجازات الصيفية كنا نقضى معظم الوقت معا ، أما عن فترة الطفولة الأولى بالنسبة للأولاد فلم تكن معطلة بالنسبة لى ، العبء الأكبر حملته عنى زوجتى .. ، عرفت مع الوقت مزاجى ، ونظام حياتى ، وكانت متفهمة دائما ومعاونة لى ، يجوز لو زوجة أخرى كانت قرفتنى ، لكن هذا لم يحدث ، إن التجربة بالنسبة لهذه الناحية موفقة ، كذلك من ناحية العلاقات الاجتماعية ، حتى عندما كانت شقيقتها تجىء إلى مصر ، كنت أذهب إليها نادرا ، ليس هذا فقط ، ولكن عندما يجىء أشقائى لزيارتى لم أكن أجلس معهم معظم الوقت ، كانوا يصافحوننى ، ويخرجون مع زوجاتهم ليجلسوا مع العائلة . اعتاد أشقائى ذلك ، كانوا يعرفوننى ، أذكر أن أخى محمد الله يرحمه عندما كان يجىء إلى زيارتنا ، بعد الغداء ، أجلس إليه قليلا ، لكنه يقول لى ، قم إلى شغلك ، أنا أعرفك .. إنما جئت لأقعد مع الأولاد .. ، أعترف أننى لم أكن موفقا فى حياتى الاجتماعية ، العلاقات والزيارات وما إلى ذلك ، لكننى كنت حريصا ألا أبدد وقتى أبدا ..

البدائل ....

كيف كانت ستمضى حياتى لو ارتبطت بإحدى الزيجات التى كانت تمهد لها الوالدة ؟ سؤال قد يبدو صعبا ، ومما يساعدنى على الاجابة أننى تتبعت بعض النماذج التى كان من الممكن أن أرتبط بها ، تتبعت الأخبار بالطبع ، كانت والدتى تركز على إحدى قريباتى ، كانت ثرية ، وكانت أمى تتصور أنها ستسعدنى ، أم قريبتنا رحبت بى لسبب غريب جدا ، البنت عادية الشكل ، ليست قبيحة ، وليست جميلة جدا ، لكنها تصورت أن من سيتزوج ابنتها سوف يسرق ثروتها ، ثروة تقدر بربع مليون جنيه ، تصور .. أيام الرخص ، أبوها رجل جمع ثروته بمختلف الطرق ، كان مشهورا بخراب الذمة ، مات

وترك العائلة هكذا ، البنت وشقيق مستشار ، وأخ طيار ، الأولاد على خلق عظيم ، لكن الأب حرامى كبير ، وطبعا كان محترما جدا فى المجتمع ، رأيته فى بعض المآتم ، إذ يدخل ، كل الناس تقف له ، كان متزوجا من إحدى قريباتي ، إذا حوسب على عمله فالبصق عليه قلة ، ولكن تجاه المال والثراء تضعف النفوس ، لن أقول لك إننى رفضت البنت بسبب أبيها ، أمها كانت سيدة على خلق ، وحريصة على جدا ، لأن إحساسها ، أننى الوحيد الذى لن يمد يده إلى ثروة أبيها ، لن يسرقها ، يعنى كنت مجرد موظف صغير فى وزارة الأوقاف ، ولو أرادت أن تزوج ابنتها إلى وزير لاستطاعت ، لكنها كانت تريد زغجا لا يطمع فى أموال ابنتها ، ووجدت فىّ ضالتها ، زوجها ملأها بفكرة سيئة عن الرجال ، وتحولت الفكرة إلى خوف على البنت ، لم أتزوج الابنة ، ومع الأيام تزوجت شابا على خلق ، أعرفه ، ظل يتردد علىّ فى نادى القصة ، وكان دائم الشكوى ، لأن مرتبه صغير ، وأمها تريده هو أن يصرف ، أنظر إلى الخوف على الثروة ؟ ! ، كان يقول لى .. يا فلان ، يعني حالى يرضيك ، مرتبى لا يكفى ، وزوجتى لديها كل هذا المال . كلامه معقول ، لكن عقدة الثراء فظيعة ، وسطت أحد أقاربى ليتحدث إلى الوالدة .

ليس من المعقول أن يكون لابنتك كل هذا المال ، وتعيش مع زوجها فى ضنك ، حرام .. وإبنتك ليست فى مستوى مرتب قدره أربعون أو خمسون جنيها فقط ..

أمى .. وأبى ....

... أوافقك على أن أمينة فيها ملامح كثيرة من الأمهات المصريات . لكنها ليست أمينة الأم فى الثلاثية ، أمينة فيها من أمى القليل ، والدتى برغم جيلها كانت منطلقة ، يعنى ، من تتصور أنها قادرة على الخروج من منطقة الحسين لتزور الأهرام ، والمتحف المصرى ، وقسم المومياءات ، حتى الآن لا أعرف كيف ؟ ولم أكنْ فى سن تسمح لى بتوجيه أسئلة الاستفسار ، كنت أمشى فى يدها .. وخلاص ، كانت والدتى رحمها الله عصبية إلى حد ما ، والدى كان « دقة قديمة » لكن لطيف ومحبوب ، معظم أيامه فى البيت ، لا يسهر فى الخارج إلا مرة كل أسبوع ، سواء فى أيام وظيفته ، أو عندما أصبح تاجرا ، نعم .. كان والدى موظفا ، وعندما وصل إلى مدة الخدمة التى يستحق عنها معاشا كاملا ، أحال نفسه إلى التقاعد . له أحد الأصدقاء ، صاحب متجر كبير ، وفابريكة ، كان يذهب دائما إلى بورسعيد : قال له ، لماذا لا تأتى وتعمل معى ، إننى فى حاجة إلى من أثق به ، وهكذا تجمع بين المعاش والمرتب ، واطمئن أنا إلى تجارتى فى يد صاحبى وأعرف أن أسافر وأتفرغ لشغلى ، والدى ضربها فى دماغه ، كان موظف حسابات ، والعمل عند صاحبه أقل تعقيدا .. قبل .. ، لم يكن هناك شبه بين أمى وأمينة فى الثلاثية ، كذلك بين أحمد عبد الجواد ووالدى .. رحمهم الله أجمعين !!



الفهرس

مقدمة ٥

الطفولة ٤٥

التيه فى الزمن ٤٩

الوالد ٥٠

ما تبقى ٥٢

بين العباسية والحسين ٥٣

شخصية غريبه ٥٤

نقطة انطلاقى ٥٦

أول حب ٥٧

المنبسط المنطوى ٥٩

بداية التكوين والصراع بين الأدب والفلسفة ٦٠

سر الوجود ٦٢

الأدب والفلسفة ٧٥

الأدب ٧٥

التكوين والكتابات الأولى ٧٨

الواقعية ٧٩

التراث ٨٠

التاريخ ٨١

العلم ٨٢

عادات القراءة ٩٢

العقلانية ٩٣
العبث ٩٣
اللغة ٩٤
المكتبة ٩٥
الخروج من الظل الى دائرة الضوء ٩٦
أول جنيه ! ٩٦
الكتاب الشعبى ٩٧
انهيار بسبب الثلاثية ٩٨
الروايات الكبرى ... الثلاثية ١٠٠
شخصيات بين الواقع والخلق ١٠١
الثلاثية ١٠٣
معايشة دائمة ١٠٥
الأدب العظيم ينبع من الذات ١٠٧
الشكل والمضمون ١٠٨
السياسة والثورة ١١١
كدت افقد حياتى ١١٤
الكفر ١١٥
الزعيم ١١٦
لست معاديا للثورة ١١٧
ابنتى تسأل من هو سعد زغلول ؟ ! ١١٨
مصر الفتاة والاخوان ١١٨
عبد الناصر ١١٩
التاريخ والمأساة ١٢٠
الفتوات والمقاهى ١٢٠
عرابى وسعد ١٢٤
الأوتوبيس ١٢٥

المقاهى ١٢٦
ميلاد الكرنك ١٢٧
الاسكندرية .. وتوفيق الحكيم ١٢٩
بيترو ١٣٠
الخارج ١٣١
روض الفرج وأم كلثوم ١٣٢
السينما أثمرت فى سنوات اليأس الأدبى ١٣٤
السينما والتركيز ١٣٥
توقف ١٣٨
أول قصص قصيرة اكتبها برغبة ١٣٩
النقد ١٣٩
ما تبقى ١٤٠
الوظيفة ١٤١
استثناءات ١٤٢
الحب الأول والكبير ١٤٣
الزواج والأسرة ١٤٩
فترة اليأس ١٥٠
الواجبات الاجتماعية ١٥٠
البدائل ١٥١
أمى وأبى ١٥٣

● أوراق شاب عاش منذ ألف عام (مجموعة قصصية) طبعة خاصة عن دار صلاح الدين	طبعة أولى	١٩٦٩
● القدس المحتلة ١٩٧٥	طبعة رابعة	١٩٨٠
● أرض .. أرض (قصص)	طبعة أولى	١٩٧٢
	طبعة ثانية	١٩٨٠
● الزينى بركات (رواية)	طبعة أولى	١٩٧٥
	طبعة ثالثة	١٩٨٥
● الزويل (قصص)	طبعة أولى	١٩٧٤
	طبعة ثانية	١٩٨٠
● وقائع حارة الزعفرانى (رواية)	طبعة أولى	١٩٧٦
	طبعة ثانية	١٩٨٥
● الحصار من ثلاث جهات (مجموعة قصصية)	طبعة أولى	١٩٧٥
	طبعة ثانية	١٩٨٠
● حكايات الغريب (مجموعة قصصية)	طبعة أولى	١٩٧٦
	طبعة ثانية	١٩٨٠
● ذكر ما جرى (مجموعة قصصية)	طبعة أولى	١٩٧٨
	طبعة ثانية	١٩٨٠
● الرفاعى (رواية)	طبعة أولى	١٩٧٨
	طبعة ثانية	١٩٨٠
● خطط الغيطانى (رواية)		١٩٨٠
● كتاب التجليات ـ السفر الأول ـ صدر عن دار المستقبل العربى بالقاهرة ودار الوحدة بيروت		١٩٨٣
● كتاب التجليات ـ السفر الثانى ـ صدر عن دار المستقبل العربى		١٩٨٥

- كتاب التجليات ـ السفر الثالث ـ دار المستقبل العربى ١٩٨٧
- رسالة فى الصبابة والوجد ـ روايات الهلال ١٩٨٧
- اتحاف الزمان بحكاية جلبى السلطان مجموعة قصصية صدر عن دار المستقبل العربى ١٩٨٥
- منتصف ليلة الغربة مختارات فصول ١٩٨٤
- احراش المدينة (مختارات قصصية) كتاب اليوم ١٩٨٥

دراسات ومشاهدات :

- المصريون والحرب صدر عن دار روزاليوسف ١٩٧٤
- حراس البوابة الشرقية صدر عن دار الطليعة بيروت
مكتبة مدبولى القاهرة ١٩٧٥
- نجيب محفوظ يتذكر صدر عن دار المسيرة ـ بيروت ١٩٨٠
- مصطفى أمين يتذكر صدر عن مكتبة مدبولى ـ القاهرة ١٩٨٠
- ملامح القاهرة فى الف عام صدر عن كتاب الهلال ١٩٨٣
- اسبلة القاهرة (قاهريات) صدر عن مكتبة مدبولى ١٩٨٤

اعمال ترجمت الى لغات اجنبية

- الزينى بركات

صدرت الترجمة الفرنسية عن دار EDITIONDUSEUIL الفرنسية
صدرت الترجمة السويدية عن دار NORSTEDT & SONERS السويدية
صدرت الترجمة الانجليزية عن دار PENGUIN الانجليزية
صدرت الترجمة الهولندية عن دار UNIEBOEK الهولندية
صدرت الترجمة النرويجية عن دار ASCHEHOUG النرويجية
صدرت الترجمة الروسية عن دار رادوجا السوفيتية
صدرت الترجمة البولندية عن دار نشر الدولة

- وقائع حارة الزعفرانى :

صدرت ترجمتها الانجليزية فى سلسلة الأدب المعاصر ، عن الهيئة العامة للكتاب فى القاهرة

- قصص قصيرة ، ترجمت متفرقة الى اللغات ، الفرنسية ، والانجليزية ، والاسبانية ، والايطالية ، والعبرية ، الالمانية .
- صدرت الاعمال الكاملة حتى عام ١٩٨٠ عن دار المسيرة بيروت

تحت الطبع

- البصائر فى المصائر قصص
- الأخبار الطوال رواية



مطابع الأخبار